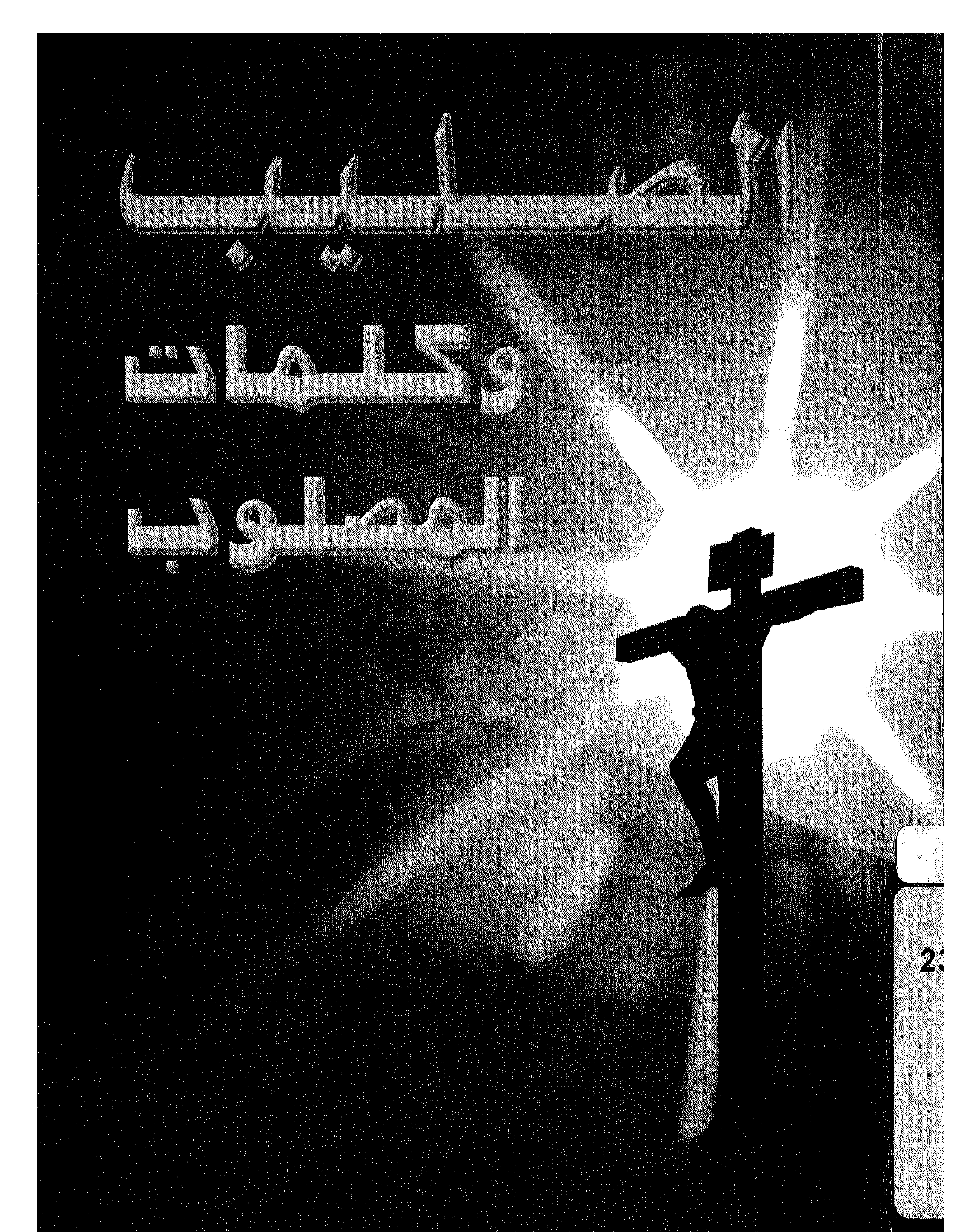

الصليب
وكلمات
المصلوب
يوسف رياض

الصليب وكلمات المصلوب

الصليب وكلمات المصلوب

يوسف رياض

طبعة أولى

٢٠٠٠

الصليب وكلمات المصلوب

المؤلف : يوسف رياض

يُطلب من : مكتبة الإخوة ٣ش أنجه هانم – شبرا مصر ت: ٥٧٩٢٢٨٤

بريد الكتروني: brethren_pub@writeme.com

وفروعها: مصرالجديدة : ٦٥ش نخلة المطيعي تريومف ت: ٢٩٠٤٠٠٣

الأسكندرية : ٦ش الفسطاط كليوباترا

المنيا . ٦ش الجيش ت:٣٦٤٤٠٦

أسيوط . ٢١ش عبدالخالق ثروت ت: ٣٤٢٠٢٨

ومن المكتبات المسيحية الأخرى

طبع بمطبعة السلام للطباعة

رقم الإيداع: ٢٠٠٠/١٩٠٢١

الترقيم الدولي: ISBN 977-321-027-8

محتويات الكتاب

تقديم

كلمات الرب من فوق الصليب موضوع شيق، يجد فيه كـــل دارس للكلمـــة المكتوبة، وكل محب للكلمة المتجسد، مادة دسمة وشهية. ولقد سبق لي مـــرات عديدة أن سعدت وأنا أدرس هذا الموضوع العظيم. فقدمت مـــرات دراســات وعظية فيه في العديد من الاجتماعات الخاصة. بعد ذلك قدّمت الموضوع ذاتـــه كمادة إذاعية مسلسلة في إذاعة "حول العالم"، ثم بعد ذلك قدمته في موضوعـــات مسلسلة ظهرت في مجلة "النعمة والحق" في الفـــترة مـــن عـــام ١٩٩٧ حتـــى عام ٢٠٠٠. وكنت كلما أدرس هذا الموضوع أجد المزيد المعزي لأضيفه إلـــى المادة التي قُدِّمت في المرة الأسبق. وها أنا أخيراً أقدمه الآن في صورة كتـــاب بعنوان "الصليب وكلمات المصلوب"، راجياً أن يستخدمه الرب لبركـــة القـــارئ العربي في كل مكان ولفائدته، ولخير جميع الذين يحبـــون المســيح ويفـــهمون مدلول عمله الفدائي لأجلهم من فوق الصليب.

يوسف رياض

مقدمة

من فوق الصليب، وفي خلال الساعات الرهيبة التي قضاها المسيح وهو معلق عليه، نطق – له المجد – بسبع عبارات غالية وثمينة جداً. وهي عبارات لم يُسمع على مدى التاريخ أروع منها، كل واحدة منها تحتوي على محيط زاخر من المعاني.

والكلمات الأخيرة في حياة كل إنسان يكون لها عادة مدلول كبير وقيمة فريدة. فهكذا كانت كلمات يعقوب الأخيرة (تك٤٩)، وكلمات موسى الأخيرة (تث٣٢؛٣٣)، وكلمات يشوع الأخيرة (يش٢٤)، وكلمات داود الأخيرة (٢صم٢٣). لكننا في هذا الكتاب سندرس كلمات المسيح الأخيرة، ليس تلك التي قالها في حياته، بل التي قالها من فوق الصليب.

لقد تكلم أناس عاشوا على الأرض، قبل المسيح وبعده، بكلمات طيبة وصادقة. لكن بكل تأكيد لم يتكلم إنسان قط بمثل ما تكلم المسيح. كما أن المسيح لم يتكلم قط بأروع مما تكلم به من فوق الصليب ولا بأعمق.

العبارات الثلاث الأولى كانت أثناء ثلاث ساعات الصلب الأولى، أي من التاسعة صباحاً حتى الثانية عشر ظهراً بتوقيتنا الحاضر. ثم حدثت الظلمة

المعجزية مدّة ثلاث ساعات. وخلال ساعات الظلمة لم يُسمع صوت أحد من البشر، وفيها لم ينطق المسيح بكلمة واحدة على الإطلاق، إذ كان مشغولاً بأعظم عمل، ومحارباً في أعظم معركة. ثم بعد ساعات الظلمة الثلاث نطق الرب بالعبارات الأربع الأخيرة في تتابع سريع، وأسلم الروح.

ولقد كانت الثلاث العبارات الأولى خاصة بالبشر المحيطين بالصليب، قالها المسيح عنهم أو إليهم، أما العبارات الأربع الأخيرة فإنها كانت خاصة بشخصه الكريم.

* * * *

إننا أحياناً عندما نقرأ فصولاً معيَّنة في الكتاب المقدس، يملأنا الشعور بنعمة الله الفيّاضة، فنحس بإحساس الابن الراجع من الكورة البعيدة عندما جعلوا الحذاء في رجليه، واقتادوه ليدخل البيت مُرّحَباً به. ولكننا أمام مشاهد وفصول أخرى، يكون الشعور الطاغي ليس بتلك النعمة العجيبة، بل بالقداسة المطلقة، وعندئذ فإننا بدل أن نفرح بالحذاء في أرجلنا نبادر بخلعه، إذ يدوي في أسماعنا الصوت الذي سمعه موسى قديماً: «لا تقترب إلى ههنا... لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدّسة» (خر٥:٣). وقطعاً لا توجد بقعة مقدسة في كل الكون، ولا مشاهد مقدسة في كل الوحي، نظير بقعة الجلجثة والحوادث التي دارت هناك عندما رُفع المسيح فوق الصليب ليموت بدل الخطاة!

* * * *

هذه العبارات السبع هي بمثابة طاقات نتطلع من خلالها إلى ما كان يدور في ذهن مسيح الله خلال ساعات الصليب. ومع أنها كلمات مقتضبة فهي محمّلة بالمعاني، زاخرة بالدلالات.

قال واحد: "كما كان يجب ألا يُكسر عظم من عظام المصلوب، هكذا فإن

كلمة واحدة من كلمات المصلوب لا ينبغي أن تضيع".

كانت كلمات الرب بترتيبها* الذي نطق به:

العبـــارة الأولى : وهي صلاة وجهها للآب من أجل الأعداء الذين كانوا قد فرغوا لتوهم من صلبه:

«يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

هنا نجد غفران الخطايا المجاني للأعداء.

العبـارة الثانيـة : قالها لأمه مريم، وكذلك لتلميذه يوحنا، مستودعاً إياها لعنايته:

«يا امرأة هوذا ابنك. ثم قال ليوحنا هوذا أمك».

هنا نرى الإنسان الكامل مهتماً بأمه.

العبـارة الثالثـة : قالها للّص التائب مرحِّباً به في الفردوس:

«الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس».

هنا نرى خلاص الله العجيب الذي يعطي المؤمن الأمان في ساعة انطلاقه وموته.

العبـارة الرابعـة : قالها من عمق الظلمة موجِّها إياها لله بسبب تركه له:

«إلهي إلهي لماذا تركتني».

هنا نرى الذبيحة الكفارية والآلام التي احتملها.

* لا يمكن الجزم بصورة مطلقة بترتيب كلمات المسيح من فوق الصليب، سيما وأنها لم ترد كلها مجتمعة في أي إنجيل، لكن بمقارنة المكتوب بالمكتوب يمكننا استنتاج الترتيب المقترح عاليه.

العبارة الخامسة : موجّهاً إياها لكل من له أذن، معبراً فيها عن آلامه الجسدية:

«أنا عطشان».

في هذه العبارة نرى صدق كلمة الله، وعدم سقوط كلمة واحدة منها، وحرص المسيح على إتمامها.

العبارة السادسة : موجّها إياها لكل من يعنيه الأمر، معبّراً عن إكماله عمل الفداء:

«قد أكمِل».

وفيها نرى كمال العمل العظيم الذي قام به المسيح.

العبارة السابعة : موجّها إياها لأبيه، مستودعاً روحه بين يديه:

«يا أبتاه في يديك استودع روحي».

هنا نرى الأمان والثقة من جانب المتألم البار في ساعة موته.

وبكلمات أخرى فإننا

في العبارة الأولى : نرى **الوسيط متوسلاً**

في العبارة الثانية : نرى **الكمال مترفقاً**

في العبارة الثالثة : نرى **الملك مرحّباً**

في العبارة الرابعة : نرى **الذبيح متألماً**

في العبارة الخامسة : نرى **الشهيد معذَّباً**

في العبارة السادسة : نرى **المخلّص مكمّلاً**

في العبارة السابعة : نرى **الإنسان مسلِّماً**

سبع عبارات، والرقم "سبعة" في كل الكتاب المقدس من أوله إلـــى آخــره، هو رقم الكمال. والآن إذ نتأمل في عبارات المسيح السبع من فــوق الصليــب فإننا نتأمل في الكمال بعينه.

نعم إن هذه العبارات تتلألأ بأروع مما تتلألأ به المنـــائر الســبع الذهبيــة، وتشع من الضياء أعظم مما تشع به الكواكب السبعة في سفر الرؤيـــا. ولَكَــم اهتدى بهديها الملايين! ولكم شهدت لسموٍّ قائلها، وسموٍّ عمله في آن معاً!

العبارة الأولى من فوق الصليب

كلمات الغفران

ولما مضوا به إلى الموضع الذي يُدعى جمجمة صلبوه هناك مع المذنبين، واحداً عن يمينه والآخر عن يساره. فقال يسوع:

يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ

لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ

(لو ٢٣: ٣٣، ٣٤)

الكلمة الأولى: صلاة!

الشيء اللافت أن أولى عبارات المسيح المجيدة من فوق الصليب كانت صلاة لله.

يا له من شخص عجيب ليس له نظير! فها إن يديه لم تعودا تعملان الخير كما عملتا كثيراً، إذ سمرهما البشر على الصليب، ورجليه لم تعودا تحملانه إلى البؤساء والمساكين ليخدمهم، لأنهما مسمرتان كذلك على الصليب، وشفتيه لم تعودا تنطقان بكلمات الوعظ والتعليم لتلاميذه كعادتهما، لأن تلاميذه كلهم تركوه وهربوا. فبأي شيء ينشغل ذلك الشخص العجيب، في ذلك الوقت العصيب؟ إنه ينشغل بالصلاة لأبيه!

كان آخر عمل عمله – تبارك اسمه – قبل القبض عليه في بستان جثسيماني هو الصلاة لأبيه. وبعدها اقتيد للمحاكمة، حيث حُكِمَ عليه جوراً، وعُذِّب ظلماً، لكنه في كل مراحل المحاكمة ظلّ صامتاً، لم يدافع عن نفسه قط. ولم ينطق بشيء إلا لكي يشهد للحق. وعندما عُذِّب تحمَّل غُصص الألم صامتاً دون أن يتأوه، إذ كان «كشاةٍ تُساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازّيها فلم يفتح فاه» (إش٧:٥٣). لكن ذاك الذي ظل أمام البشر صامتاً لا يفتح فاه، ها هو يتجه إلى أبيه في صلاة. فما أروعه!

لقد كانت عادة الصلاة بالنسبة لربنا يسوع المسيح أقوى من أن توقفها جرعات الألم مهما اشتدت. وفي إنجيل لوقا بالذات، حيث ورد هذا النُطق للرب يسوع، وهو الإنجيل الذي يقدّمه لنا باعتباره الإنسان الكامل، نجد المسيح مصلّياً سبع مرات*. ومن العبارات السبع على الصليب اختُصَّ لوقا بذِكر ثلاث، وكانت منها العبارتان الأولى والأخيرة من هذه العبارات السبع، وهما صلاتان لأبيه أيضاً.

هذا هو الإنسان الفريد الكامل، رجل الصلاة. لكن توقيت صلاته هذه المرة يُضفي على صلاته جمالاً خاصاً، وعلى شخصه مجداً فريداً. فهو الآن في آخر لحظاته، وتتم فيه كلمات إشعياء النبي في الأصحاح ٥٣ «لأن حياته تُنتَزع من الأرض» (أع٨:٣٣)، ومع ذلك نراه مصلياً!

في مزمور ١٠٩ ترد عنه هذه الكلمات «انفتح عليَّ فم الشرير... بكلام بُغضٍ أحاطوا بي، وقاتلوني بلا سبب. بدل محبتي يخاصمونني. أما أنا فصلاة» (١٠٩:٢-٤). إنه لا يقول أما أنا فأصلي، بل «أما أنا فصلاة».

هذا هو القدوس الفريد الذي غُمِر تماماً بعادة الصلاة، عاش فيها وعاشت فيه، فأصبحت من مكونات حياته الإنسانية الفريدة، حتى إنه حالما فرغ الجند القساة القلب من عملية الصليب، فبدلاً من أن يتأوه ويئن ويصرخ، تحوّل إلى الله بالصلاة قائلاً: يا أبتاه.

لقد شبّه أحدهم شخصه بصُرة المُر التي تظل تبعث عِطرها بلا توقف، ومهما كانت الظروف. ويا له من درس هام لكل مؤمن! فهناك أشخاص تبعدهم قسوة الألم عن عرش النعمة، وتحرمهم مرارة التجارب التمتع بقلب الله. أما المسيح فما كان أشد آلامه، ومع ذلك تحوّل - أول ما تحوّل - إلى الله بالصلاة.

---

* انظر لو٣:٢١؛ ٥:١٦؛ ٦:١٢؛ ٩:١٨، ٢٩؛ ١١:١؛ ٢٢:٤١.

رئيس الإيمان ومكمِّله

كانت أول كلمة ينطق بها المسيح بعد صلبه هي «يا أبتاه». ويا لـها مـن كلمة تعبِّر عن شركة وثيقة عميقة مع الله! شركة مستمرة هادئة، برهنت على أن إيمان ذلك القدوس بالله لم يتزعزع إطلاقاً رغم الآلام التي كـان قـد جـاز فيها، ورغم الآلام التي كانت ستغمره وهو مُعلَّق فوق الصليب.

لقد كسرت الآلام قلبه، لكنها لم تؤثر في شركته مع أبيه. ومع أنـه كـان مُحاطاً بالمهانة والظلم، فإنَّ هذا لم يَحُلْ دون ثقته ببنوته للآب، وبمحبة الآب لـه «فقال يسوع: يا أبتاه». وكأنه في كل هذا يردد ما كان قد قاله في مرة سـابقة «نعم أيها الآب، لأن هكذا صارت المسرة أمامك» (مت١١:٢٦).

وكما قلت: هو درس لكل المؤمنين. فعندما تضيق بنا الحياة بعـد سـعةٍ، وتهوى بنا الآمال من عليائها، فماذا نفعل؟ أتخور عزائمنا أو يضعف إيماننـا؟ أنخطئ بألسنتنا وننسب لله جهالة؟ أم ننطح برؤوسنا المشيئة الإلهية؟! هنـاك أشخاص عظام عندما ضغط الألم عليهم، أصاب اليأس والقنـوط منـهم مقتـلاً فلعنوا اليوم الذي وُلِدوا فيه، وسبّوا يومهم*. أما ذاك المبارك الفريـد، رئيس الإيمان ومكمله، الذي تألم كما لم يتألم سواه، فعندما اسـودّت أمامـه صفحـة الحياة رفع رأسه، وكانت أول عبارة تخرج من فمه هي «يا أبتاه».

علّق أحدهم على ذلك بالقول: "لو قُدِّر ليد الخالق العظيم أن تتخلى عن دفـة الكون، فتنساق مصائر البشرية إلى بحر عجَّاج مُزبـد بالتشـويش والفوضـى، لكان ذلك عندما سيق ذاك الذي هو تجسيد الجمال الأدبي ليموت كمـا يمـوت

* قارن أي٣:١؛ إر ٢٠:١٥.

سفيهٌ أو أثيم". لكن المسيح في ذلك الوقت عينه، وقد أحاط به أعداؤه المسعورون، وأحدق به من كل جانب الحاقدون، تحوّل عن هذا كله إلى الآب، مخاطباً إياه بالتعبير الذي يدل على الثقة والمحبة. وفي هذا أبلغ الدروس وأسماها لأولاد الله، ألا يفشلوا ولا ييأسوا. قد يتلبّد في الأفق سحاب أسود كثيف، ويبدو وكأنّ الجو قاتم ومخيف. لا ترتَعْ من الأمر، ولا تفقد الإيمان، فإن الله حي يتبوأ عرشه، والرب في العُلى أقدر (مز٩٣: ٤).

صلاة لأجل الأعداء

لكن دعنا الآن نتحول إلى فكرة أخرى. نعم، شيء رائع أن المسيح في آخر لحظة يصلي، وفي ظروف كهذه يصلي لأبيه. لكن لأجل مَنْ صلّى المسيح؟ إنه لم يصلِّ لأجل نفسه بل لأجل الآخرين، وليس لأجل الآخرين فقط، بل لأجل الأعداء، الأعداء الذين رفضوه من البداية، وأرادوا التخلص منه بأي ثمن، والذين لم يكن يشفي غليلهم مجرد موته فقط، بل موته مصلوباً. وها هم قد مضوا به إلى الموضع الذي يُدعى جمجمة*، ونفّذت أياديهم الآثمة ما أرادت قلوبهم الأشد إثماً. فعندما يصلي لأجلهم المسيح، تُرى ماذا يقول؟ إنه يقول: «**يا أبتاه، اغفر لهم**»!!

إننا عندما نتأمل في المعاملة القاسية التي عامل بها أولئك الأشرار ربَّ المجد لا نتمالك أنفسنا، ولا نقدر أن نخفي احتقارنا لأولئك الأشقياء الذين داسوا ابن الله، والذين قبلوا طواعية أن يكونوا آلة في يد إبليس. أولئك القساة الذين لا

* إن موضع الجمجمة له هنا دلالة هامة، وهي أن الخطية جعلت الإنسان بلا عقل «أما الرجل ففارغ عديم الفهم، وكجحش الفرا يُولَد الإنسان» (أي١١: ١٢). فهؤلاء الأشرار أثبتوا في كراهيتهم للمسيح ليس فقط أنهم بلا قلب، بل أيضاً بلا عقل.

قلب لهم، ماذا كان موقف المسيح منهم؟ وماذا كان رده تجاه كل ما بدر عنـــهم؟ لقد قال: «يا أبتاه اغفر لهم».

ما أعجبَ المصلوبَ في عُمقِ الألـمْ ... والبغضُ في الإنسانِ يقذِفُ بـــالحممْ

حينَ طَمَا المـــوجُ بتيـــارِ الغضـــبْ ... والغمرُ نادى الغمرَ في بحرِ خِضَـــمْ

عجباً يُصلّي إلــــى أبيـــه ويطلـــبُ ... مِنْ أجلِ مَنْ صلبوهُ عن حسدٍ وظُلـمْ

مِنْ أجلِ مَنْ أبدى العـــداوةَ ســـافِراً ... بالبصقِ في الوجهِ الكريمِ ومَنْ لَطَـمْ

أما كان بوسع ابن الله أن يجعل الأرض تفتح فاها وتبتلع أولئـــك الأشـــقياء أحياء؟! لقد كان -تبارك اسمه- موضع احتقارهم، وعلى أيديهم كـــان يتجـــرع من غُصص الألم ما نعجز عن وصفه، ومـــع ذلك ها هو يصلي قائلاً «يا أبتاه اغفر لـــهم»! فيا للنعمة الغافرة، والمحبة الغـــامرة! حقـــاً، مياه كثيرة لـــم تستطِعْ أن تطفـــئ المحبـــة والسيول لم تغمرها. إنها محبة مـــن النـــوع الإلهي: الذي يحتمل كل شيء، ويصبر علـــى كل شيء. لقد صدق واحد عندما قـــال: "لـــو أننا لا نعرف شيئاً عن المســـيح ســـوى هـــذه الصلاة الواحدة لرفعته فوق مستوى البشـــر، فإن سموَّها ونُبلها لا يصـــدران مـــن إنســـان عادى. وصاحبها لا يمكن إلا أن يكون عظيماً، وابن العلي يُدعى"!

لـو أننـا لا نعـرف شـيئاً عـن المسـيح سـوى هـذه الصـلاة الواحدة لرفعتـه فـوق مسـتوى البشر، فـإن سموَّها ونُبلـها لا يصـدران مـن إنسـان عـادى. وصاحبها لا يمكن إلا أن يكون عظيماً، وابن العلي يُدعى

إن أصعب شيء على الطبيعة البشرية هو الغفران. وطبيعتنا تجد في الانتقـام من الأعداء ألذ الأطايب، وفي التشفي من المسيئين شفاء من الغيـظ. تفكَّـر فـي

شمشون مثلاً: لقد صلّى هو أيضاً لله في آخر لحظاته، وصلّى لأجل الأعداء. لكن ما أبعد الفارق بين صلاة شمشون، وصلاة ربنا يسوع المسيح. لقد طلب شمشون الانتقام من أعدائه بسبب عينيه، أما المسيح فطلب الغفران لصالبيه!

لكن دعك من شمشون الذي طلب الانتقام من الفلسطينيين أعداء شعبه وأعداء الله، وتفكّر في إرميا النبي الباكي رقيق القلب واسمع بعضاً من أقواله عن شعبه: «والرب عرفني فعرفت. حينئذ أريتني أفعالهم، وأنا كخروف داجن يُساق إلى الذبح ولم أعلم أنهم فكروا عليّ أفكاراً قائلين: لنهلك الشجرة بثمرها، ونقطعه من أرض الأحياء، فلا يُذكر بعد اسمه. فيا رب الجنود، القاضي العدل، فاحص الكلى والقلب، دعني أرى انتقامك منهم لأني لك كشفت دعواي» (إر ١١:١٨-٢٠)، ثم يقول: «افرزهم كغنم للذبح، وخصِّصهم ليوم القتل» (٣:١٢). وفي مناسبة أخرى يقول: «ليخزَ طارديَّ ولا أخزَ أنا. ليرتعبوا هم ولا أرتعب أنا. اجلب عليهم يوم الشر واسحقهم سحقاً مضاعفاً» (١٨:١٧). ومرة أخرى يقول: «اذكر وقوفي أمامك لأتكلم عنهم بالخير لأرد غضبك عنهم. لذلك سلِّم بنيهم للجوع، وادفعهم ليد السيف، فتصير نساؤهم ثكالى وأرامل، وتصير رجالهم قتلى الموت، وشبانهم مضروبي السيف في الحرب. ليُسمَع صياح من بيوتهم إذ تجلب عليهم جيشاً بغتة» (١٨:٢٠-٢٢).

إن المسيح من فوق الصليب لم يعمل معجزات، لكن صلاته هذه هي أروع من أعظم المعجزات التي ميّزت طريقه وسط هذا العالم البائس: أن يغطي رؤوس قاتليه الفجار بغطاء غفرانه ليحميهم من عاصفة غضب الإله العادل!

هذا هو الإنسان الكامل الفريد. فعندما اسودّت أمامه صفحة الحياة تماماً، تحوّل إلى الله، مخاطباً إياه: «يا أبتاه»، ثم عندما تلاطمت فوق رأسه أمواج الظلم من معذّبيه قال: «يا أبتاه، اغفر لهم»!

يسوع مثالنا الأعظم

يقول البشير لوقا: «ولما مضوا به إلى الموضع الذي يدعى جمجمة صلبوه هناك مع المذنبين، واحداً عن يمينه والآخر عن يساره. فقال يسوع: يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

وعندما يذكر لنا الوحي اسم «يسوع»، يريد أن يُذكِّرنا بذلك الإنسان (فيسوع هو اسمه الإنساني). إن ذلك الإنسان «يسوع» كان قد علّم الناس في بداية خدمته أسمى التعاليم وأرقى المبادئ، لا سيما في موعظة الجبل الشهيرة. وفي الإنجيل نفسه نقرأ جانباً من تلك الكلمات العظيمة: «أقول لكم أيها السامعون: أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم» (لو٦:٢٧،٢٨)، وختم المسيح موعظته هذه بالتنبيه على ضرورة العمل بكلامه لا الاستماع إليه فقط. لكن السؤال هو: هل عمل يسوع نفسه بهذه التعاليم، أم اكتفى بأن يلقّنها لغيره؟ لقد أتى قبل المسيح أولئك الذين جلسوا على كرسي موسى، وكانوا يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس، وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم، وكانت خلاصة مشكلة أولئك المرائين أنهم «يقولون ولا يفعلون» (مت٢٣:٣). وقبل هؤلاء أيضاً جاء فلاسفة الإغريق، وعلّموا البشر أيضاً تعاليم أخلاقية راقية، وكانت مشكلتهم أيضاً أنهم يقولون ولا يفعلون، إذ تواجههم كلمة الله بالقول: «لأنك في ما تدين غيرك تحكم على نفسك. لأنك أنت الذي تدين تفعل تلك الأمور بعينها!» (رو٢:١).

حقاً، كم يسهل علينا أن نردد أعظم التعاليم التي لم نختبرها! فهل كان المسيح هكذا؟ كلا ألف مرة! فالمسيح ليس فقط علّم الحق، بل كان هو نفسه الحق الذي علّمه. لقد عمل بما علّم، وعاش كما قال، وفعل ما نادى به. إنه لم يترك لنا فقط تعاليمَ إلهية، بل ترك لنا أيضاً مثالاً إلهياً. وتبرهنت بهذه الصلاة كلماته الرائعة

التي كان قد قالها سابقاً «أنا من البدء ما أكلّمكم أيضاً به» (يو٨:٢٥).

يسوع مصلياً! إنه الإنسان، وكلماته إنسانية تماماً، لكن فيها شموخ النُبل الإنساني الذي لم يعرفه أحد قبله. «أحبوا أعداءكم... وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم» يا للمستوى الراقي! صحيح، لقد صلّى إبراهيم خليل الله لأجل أهل سدوم الخطاة، لكنه صلّى لأجلهم من أجل لوط ابن أخيه. وصلّى موسى كليم الله لأجل الشعب المخطئ، لكنهم أيضاً شعبه. لكن مَنْ قبْل مسيح الله صلى لأجل أعدائه؟ وإن كان شهداء المسيحية ساروا بعد ذلك على نهج المسيح القدوة، كما فعل مثلاً استفانوس الشهيد (أع٧: ٥٩، ٦٠)، فإنما يظل المسيح هو الأصل والمصدر*، والكل تعلّموا منه، كما أنه لم يبلغ أحد القمة نظيره. إنه بحق نموذج للصفح عن الإساءة، ودمه فعلاً «يتكلّم أفضل من هابيل» (عب١٢: ٢٤)، فدم هابيل، الشهيد الأول، صرخ إلى الله يطلب نقمته من أخيه، أما "يسوع"، الشهيد الأعظم، فقد طلب من الله الصفح لصالبيه!

وإذا رجعنا إلى إشعياء ٥٣، حيث النبوة الشهيرة عن آلام المسيح، نجد نحو عشر نبوات تمت بدقة فائقة في المسيح الذبيح. وآخر نبوتين فيها هما «وأُحصيَ مع أثمة، وهو حمل خطية كثيرين، وشفع في المذنبين».

«أحصيَ مع أثمة»: هذا ما فعله البشر به إذ صلبوه مع المذنبين واحداً عن يمينه والآخر عن يساره. لكنه هو «حمل خطية كثيرين، وشفع في المذنبين»، وهذا ما فعله هنا عندما قال: «يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

نعم، إنّ آخر ما عندهم قدموه له إذ صلبوه. فقدّم هو لهم أول ما عنده إذ تشفع لأجلهم. فعندما أفرغوا ما في جعبتهم، بدأ هو – تبارك اسمه – يفيض

* يلفت النظر أن استفانوس صلّى لأجل نفسه أولاً، ثم بعد ذلك صلّى لأجل قاتليه، أما المسيح فكانت أولى عباراته من فوق الصليب هي صلاة لأجل قاتليه، وآخر عباراته (العبارة السابعة) هي صلاة لأجل نفسه!

بالجود. فختام أصحاح الآلام (إش٥٣) يشير إلى هذه الصلاة التي هي أولى عبارات المسيح فوق الصليب.

والآن ماذا بالنسبة لنا؟ لقد ترك لنا المسيح مثالاً لكي نتبع خطواته، ونحن اليوم نمثل المسيح في هذا العالم الهالك، فهل نصلّي نحن لأجل الآخرين؟ يقول الرسول «فأطلب، أول كل شيء، أن تُقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس» (١تي٢: ١).

إنّ آخر ما عندهم قدموه له إذ صلبوه. فقدّم هو لهم أول ما عنده إذ تشفع لأجلهم. فعندما أفرغوا ما في جعبتهم، بدأ هو يفيض بالجود.

ألا ليت المؤمنين اليوم تكون لهم رؤى مباركة تجاه العالم المذنب الأثيم، نظير تلك التي كانت للمسيح يوم صلبه، فهكذا فعل الرسول بولس يوم محاكمته أمام أغريباس، عندما أذن الملك له أن يتكلم لأجل نفسه، فلم ينشغل بنفسه قط، بل تكلم لأجل اهتداء الآخرين، وختم حديثه بالقول «كنت أصلي إلى الله أن... جميع الذين يسمعونني اليوم، يصيرون هكذا كما أنا، ما خلا هذه القيود» (أع٢٦: ٢٩).

لقد كان المسيح في ذلك اليوم محاطاً بالأعداء الأشرار الذين تطاولوا عليه، لكنه صلى لأجلهم. فماذا نحن فاعلون إذا تقابلنا مع من لا يعلمون ماذا يقولون، ولا على من يفترون، أو من ينكرون؟ ألعلنا نظير ابني الرعد نطلب ناراً من السماء تفنيهم (لو٩: ٥٤)؟ أم أننا كسيدنا نصلي لأجلهم؟!

دعنا نلاحظ هذا:

☜ يقول الرسول «ليس أحد منّا يعيش لذاته، ولا أحد يموت لذاته» (رو١٤: ٧). والمسيح على الصليب لم يكن يموت لذاته، وكلماته الأولى لم تكن صلاة لنفسه. هكذا ينبغي أن تكون صلاة الكنيسة اليوم «أول كل

شيء» لا لنفسها بل «لأجل جميع الناس».

- ونلاحظ أن صلاة المسيح هنا لم تكن لأجل الآخرين فقط بل الظالمين المفترين أيضاً. وعندما كتب بولس أن تُقام صلوات لأجل جميع الناس، أضاف قائلاً «لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب». وكان ذلك على عهد نيرون الطاغية الذي قتل بولس في ما بعد. المسيح هنا يصلي لأجل قاتليه، وبولس يعلمنا الصلاة لمن كان سيقتله!
- ثم نلاحظ أيضاً أن صلاة المسيح للآب كانت لأجل غفران الخطايا. وينبغي أن تكون رسالة الكنيسة: خدمتها وصلواتها، متجهة لخلاص نفوس الهالكين وغفران خطاياهم. «لأن هذا حسن ومقبول لدى مخلِّصنا الله، الذي يريد أن جميع الناس يخلصون» (اتي٢: ٣،٤).

فإن نحن فعلنا ذلك لا نكون فقط قد تبعنا مثال المسيح وصلاته فوق الصليب، بل أيضاً سعينا لإتمام غرض المسيح من موته على الصليب.

شفاعة المسيح وأساسها

لقد كان المسيح هو الشخص الوحيد الذي لم يقُل قط: "يا أبتاه اغفر لي". فهو – تبارك اسمه – لم يكن محتاجاً أن يقول ذلك لأنه البار الوحيد الذي عاش على الأرض، والوحيد الذي لم يعرف خطية. وكونه البار جعله مؤهَّلاً لأن يكون الشفيع الذي يتوسل لأجل المذنبين. فما كان يصلح أن يتشفَّع مذنبٌ. في إشعياء ٥٣، قبل أن يحدثنا عن شفاعته في المذنبين، يقول «وعبدي البار بمعرفته يبرر كثيرين»، فشفاعته في المذنبين مبنية على أساس مبدئي من برِّه الشخصي.

لكن هناك أيضاً شيئاً آخرَ هاماً ليمكنه أن يكون الشفيع. فالرب لمَّا كان على الأرض لم يقل ولا مرة واحدة «يا أبتاه، اغفر لهم»، إذ كان هو نفسه يغفر

الخطايا بسلطانه. حدث هذا في حياته على الأقل مرتين: المرة الأولى مع المــرأة الخاطئة في لوقا ٧، والمرة الثانية مع الرجل المفلوج في مرقس ٢. في المرتيــن اعتبروه مجدِّفاً لأنهم قالوا «من يقدر أن يغفــر خطايــا إلا الله وحــده؟»، وهــي ملاحظة في محلها، لكن ما بَنوه عليها من استنتاج كان خاطئاً تماماً. فصحيح أنَّــه لا يقدر أحد أن يغفر الخطايا إلا الله، لكن مشكلتهم أنهم لم يروا فيه عمــانوئيل «الله معنا»، فاستنتجوا أنه مُضِلٌّ ومُجدِّف، وكان استنتاجهم هو التجديف وهو الضلال.

ونلاحظ أن المسيح لما غفر خطايا المفلوج علق على هذا بــالقول «لكــي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايــا» (مــر٢: ١٠). نعم، لما كان على الأرض كان له السلطان أن يغفر الخطايــا، أمــا الآن وقــد ارتفع عن الأرض بالصليب، فإنه كان يدفع حساب الخطايا. لهذا فإنه لم يقــل "أنا أغفر لكم"، بل قال «يا أبتاه، أغفر لهم». لقد كان المسيح في ذلــك الوقــت ممثِّلاً للبشرية، وكان آخِذاً مكان البشر الآثمين. فكــأن المســيح وهــو علــى الصليب يقول للآب: "اغفر لهم وأنا مستعد لدفع الحســاب. إن ظلمــهم الــذي ظلموه، والدين الذي عليهم، احسبه علي وأنا أوفي" (قارن فل١٨،١٩).

إذاً فهناك شرطان ليكون الشخص شفيع الخطاة: *أولاً* أن يكون هــو بــاراً، و*ثانياً* أن يتحمل أجرة خطاياهم وقصاصها. وهو عين ما نقــرأه فــي إشــعياء ٥٣: ١١، ١٢ «وعبدي البار بمعرفته يبرِّر كثيرين»، ثم «وآثامهم هو يحملــها». مِن ثَمَّ أمكنه أن يقول في النهاية «شفع في المذنبين».

هذا يجعلني الآن أشير إلى أهمية بركة غفران الخطايا. قال داود «طوبــى للذي غُفر إثمه وسُتِرت خطيته» (مز٣٢: ١). إن أعظم بركة يمكــن أن ينالــها الإنسان هي بركة غفران خطاياه. ما قيمة أن تكون ملكاً أو عظيمــاً أو عالمــاً إن لم تكن متمتعاً قبل كل ذلك ببركة غفران الخطايا. إنه حقاً ســعيد ومغبــوط ذاك الذي غُفرت خطاياه، وعرف ذلك.

قال داود في مزموره الشهير وهو يعدد حسنات الرب «باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل حسناته. الذي **يغفر جميع ذنوبك**. الذي يشفي كل أمراضك. الذي يفدي من الحفرة حياتك. الذي يكللك بالرحمة والرأفة. الذي يشبع بالخير عمرك فيتجدد مثل النسر شبابك» (مز١٠٣:١-٥). هنا ست حسنات، لكن على قمتها جميعاً ذلك الإحسان العظيم «الذي يغفر جميع ذنوبك».

والرب، كما أشرنا، قبل أن يقول للمفلوج «قم احمل سريرك وامشِ»، قال له أولاً «مغفورة لك خطاياك». فما أعظم أهمية غفران الخطايا! إنه أول احتياج للإنسان، وأول بركة للمؤمن. لهذا كان هو أيضاً أول نطق للمسيح على الصليب.

ما أعظم أهمية غفران الخطايا! إنه أول احتياج للإنسان، وأول بركة للمؤمن. لهذا كان هو أيضاً أول نطق للمسيح على الصليب.

والغفران في المسيحية ليس مبنياً على غير أساس، ولا هو مبني على رحمة الله فحسب دون عدله وبرّه. إنه مبنيٌ على أساس احتمال المسيح للعقوبة ودفعه للغرامة. «فإن المسيح أيضاً تألم مرة واحدة من أجل الخطايا، البار من أجل الأثمة، لكي يقرّبنا إلى الله» (١بط٣:١٨). لقد صُلِبَ المسيح ليمكنه أن يغفر خطايانا. فلا عجب أن ينطق المسيح، أول ما ينطق، بهذه العبارة العظيمة «يا أبتاه أغفر لهم».

قال الرسول بولس في أعمال ١٣:٣٨ «ليكن معلوماً عندكم أيها الرجال الإخوة، أنه بهذا (أي بهذا الشخص الذي هو المسيح) يُنادى لكم بغفران الخطايا». وقال الرسول يوحنا أيضاً «أكتب إليكم أيها الأولاد، لأنه قد غُفرت لكم الخطايا من أجل اسمه» (١يو٢:١٢). فهل أنت أيها القارئ العزيز متمتع بهذه البركة العظيمة التي يقدمها الله لك مجاناً على حساب عمل المسيح لأجلك على الصليب؟ ليت هذا يكون من نصيبك اليوم، بل الآن!

سموُّ صفات اللّه!

إن عبارة المسيح الأولى من فوق الصليب تُبرِز لنا جانبين من الحق. فمن الجانب الواحد تبرز لنا سمو صفات الله، ومن الجانب الآخر تبرز عمق جهل الإنسان وقوة تأثير الشيطان فيه.

نعم، ما أعجب **محبة الله** التي نراها في هذا القول «اغفر لهم... لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون»! فالإنسان المجني عليه عادةً لا يرى في القضية وظروفها إلا أدلة الإدانة ضد الطرف الآخر. أما المسيح فبينما كان أعداؤه يوجعونه بالإساءات، كان هو – تبارك اسمه – يلتمس لهم المعاذير. فما أعجب محبة المسيح التي كانت بيان محبة الله غير المحدودة للخطاة! (رو٥:٨).

وترينا هذه العبارة أيضاً **رحمة الله** التي ليس لها حدود. فمَنْ أولئك الذين كان المسيح يقصدهم بقوله «لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون»؟ ربما تقول إنه كان يقصد العسكر الرومان الذين قاموا بعملية الصلب ذاتها، لأن هذه العبارة قالها المسيح بعد قيام العسكر بصلبه مباشرةً، ولأن أولئك العسكر كانوا الأقل ذنباً بين قاتلي المسيح لأنهم أمم لا يهود، ولم تكن بين أيديهم التوراة التي تحدثهم عن مسيح الله، ثم لأنهم كانوا يقومون بعملهم تنفيذاً لأوامر صدرت إليهم من جهات عُليا. بالتأكيد كان المسيح يقصد العسكر، لكنه كان يقصد غيرهم أيضاً. وعندما نصل إلى سفر الأعمال، الأصحاح الثالث، نجد بطرس يتكلم بالروح القدس إلى اليهود فيقول «أنا أعلم أنكم **بجهالة عملتم** كما رؤساؤكم أيضاً». ومن بين اليهود الأشرار برز شاب متعصّب اسمه شاول الطرسوسي قال عن نفسه إنه كان مجدفاً ومضطهداً ومفترياً؛ ثم أردف قائلاً «لكنني رُحِمت، لأني **فعلت بجهل** في عدم إيمان» فيا لرحمة المسيح الذي يعتبر صالبيه قاتلي نفس

سهواً؛ ويعتبر أن في فعلتهم هذه لم يكن أي عمد* على الإطلاق!

ثم إن هذه العبارة تحدثنا أيضاً عن **أناة الله**. «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون». إنهم في حاجة إلى غفران. والحاجة إلى غفران تتضمن مُذنبِيَّتهم (اعتبارهم مذنبين)، لكن لكي يتم الغفران تلزم توبتهم أولاً. وكأن المسيح بصلاته هذه أعطاهم فرصة للتوبة، وأتاح لهم الفرصة ليسمعوا الكرازة فتستيقظ ضمائرهم. ولولا أن الله سمع صلاة المسيح هذه لَشقّ الأرض من تحت أقدامهم وجعلها تبتلعهم أحياء ولانتهى كل شيء بالنسبة لليهود في ذلك اليوم. لكن يا لأناة الله! فلقد نعمت أورشليم الشريرة العاصية بأن تسمع أخبار قيامة المسيح، ويُنَادَى فيها، وعلى مدى أربعين عاماً، بأخبار الإنجيل المفرحة، وترن في جنباتها أنغامه الشجية، قبل خرابها على يد تيطس الروماني.

أكان أولئك الأشرار القتلة يستحقون هذه الصلاة؟ كلا، لقد كانوا على العكس يستحقون القضاء واللعنة. وأغلب الظن أنها مرت على أسماعهم في يوم الصلب دون اكتراث، أو ربما أصبحت مادة جديدة لسخريتهم واستهزائهم. لكنه هو وجهها إلى الله، والله سمعها. كأن المسيح هنا كرر نفس ما قاله في مثل شجرة التين العقيمة، والتي أراد المالك أن يقطعها، فقال له الكرَّام «يا سيِّد، اتركها هذه السنة أيضاً» (لو١٣:٨). هكذا المسيح هنا كأنه قال لله "تمهل على أولئك الأشرار وامنحهم فرصة أخرى، لعلهم يتوبون ويرجعون فأخلِّصهم".

لكننا أخيراً نرى في هذه العبارة مقياس **قداسة الله**. «اغفر لهم... لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون». وهذا معناه أنه حتى خطايا الجهالة والسهو تحتاج إلى غفران، وتحتاج إلى كفارة، وهو ما يُظهِر سمو مقياس قداسة الله وبره،

---

* بهذه الصلاة، إذ اعتبر المسيح خطية أولئك الأشرار ليست خطية عمدية، فقد فتح أمامهم باب مدينة الملجأ باعتبارهم قاتلي نفس سهوا. وهو الباب الذي دخله كثيرون من اليهود قبل أن يدركهم الغضب إلى النهاية (قارن عد٣٥: ٩-٣٤؛ أع٣: ١٧-١٩؛ عب٦: ١٨).

وبالتالي عُظم احتياجنا نحن. فإن كانت خطايا السهو يحاسِب اللهُ عليها، فمـــاذا عن العمد؟! وبالإجمال ماذا نحن فاعلون أمام الله الذي هذا مقيـــاس قداســته؟ «مَنْ مِنَّا يسكن في نار آكلة؟! من منا يسكن في وقائد أبدية؟!» (إش٣٣: ١٤).

عمق شر الإنسان

لكن صلاة المسيح هذه تُبرز من الجانب الآخر شيئاً مهماً آخــر، هــو عمــق جهل الإنسان وقوة تأثير الشيطان فيه؛ «يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون مــاذا يفعلون». أيمكن أن يفعل الإنسان العاقل ما لا يعلمه؟ نعم، بكل أسف هذا هو مــا حدث فعلاً عند الصليب، وهو نفسه يحدث اليوم أيضاً. ويعلِّمنا الكتاب المقـدس أن إله هذا الدهر (أي الشيطان) قد أعمى أذهان غير المؤمنين لئلا تضيء لهم إنــارة إنجيل مجد المسيح. وكم هي قاسية قوة الشيطان في تضليل البشر، حتى إنهم لمـا أتاهم نور العلم لم يروه، ولما أتاهم ابن الله الكريم لــم يُقـدِّروه، ولمَّـا ارتكبـوا الجريمة الأفظع والأشنع، ألا وهي جريمة صلبه، لم يعلموا ماذا هم فاعلون!

ولهذا فإن الرب اليوم – في صلاحه – لا يوجِّه بشارة الإنجيل فقط للذيــن يعرفونه بالاسم، إلى مرتادي الكنائس ومعتادي الذهاب للاجتماعات الدينية، بــل إنه يوجهها أيضاً إلى كل من تمادوا في البعد عنه حتى انطبق عليهم القــول «لا يعلمون ماذا يفعلون»، بل إنه يرسل ضياء إنجيله إلى حيث يوجد الظلام، ويُشـع بضياء معرفته حيث يسود الجهل، وكلماته العجيبة ما زالت أصداؤها ترن إلــى الآن «اغفر لهم... لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

هل وصلت هذه الكلمات إلى إنسان يعادي المسيح لغير سبب؟ إن صــلاة المسيح هنا تضمن لك البركة والخلاص. فــهذه الصــلاة أظـهرت فاعليتــها العجيبة بعد النطق بها مباشرةً، إذ خلَّصت أحد اللصين اللذين صُلِبا مع المســيح،

كما خلَّصت ثلاثة آلاف من اليهود في عظة واحدة حسبما ورد في أعمال٢، نقول إن هذه الصلاة العجيبة ما زالت فعَّالة حتى اليوم، وما زال الله يستجيب لها في آلاف الذين يرجعون إلى الله يومياً.

هذا يجعلني أختم تأملاتي في هذه العبارة المجيدة التي نطق بها المسيح من فوق الصليب بهذه الأسئلة المحددة: إن كان المسيح، وهو فوق الصليب، قد صلَّى طالباً الغفران لأجل من تمادوا في الشر فوق التصور، وجاوزوا في العداء له كل الحدود، إذ صلَّى لأجل صالبيه أنفسهم، فهل يبقى لدينا أي يأس من جهة خلاص أي إنسان مهما كان شره؟ إنه لو كانت هناك لحظة ممكن أن تتوقف فيها توسلات المسيح لأجل المذنبين، لكانت هي تلك اللحظة التي قام فيها الأشرار بتعليقه وتسميره على الصليب، عندما قاموا في وحشية بهذا العمل الفظ الرهيب. فإنْ كان الرب قد نطق بهذا القول العجيب في ذلك الوقت، فلماذا تؤجل الرجوع إليه ولو لحظةً أخرى؟ لماذا «تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته، غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة»؟

إن الرب اليوم لا يوجِّه بشارة الإنجيل فقط لمرتادي الكنائس، بل إنه يوجهها أيضاً إلى كل من تمادوا في البعد عنه حتى انطبق عليهم القول لا يعلمون ماذا يفعلون.

نعم، إنهم لا يعلمون. وما زال العالم إلى اليوم يغطُّ في ظلمة الجهل ولا يعلم حقيقة شخص المسيح، وحقيقة صلب ابن الله، ولماذا صُلب. لكن ليتك أنت أيها القارئ العزيز تسرع إلى المسيح بالتوبة القلبية الصادقة وبالإيمان الحقيقي.

كلمات الترفُّق

وكانت واقفات عند صليب يسوع، أمه، وأخت أمه، مريم زوجة كلوبا، ومريم المجدلية. فلما رأى يسوع أمه، والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً ،قال لأمه:

يَا امْرَأَةُ، هُوَذَا ابْنُكِ.

ثم قال للتلميذ:

هُوَذَا أُمُّكَ.

ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته.

(يوحنا ١٩:٢٥-٢٧)

نساء عند الصليب

رأينا، ونحن نتأمل في كلمات المصلوب الأولى، شخص ربنا يسوع المسيح وهو وسط أناس أشرار وخطاة، ساموه ألوان العذاب، ثم سمّروه معلّقين إياه على الصليب، فجاءت عبارته الأولى، عبارة الصفح وطلب المغفرة لصالبيه، وقال: «يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

ولكن وسط موجة الحقد والشماته المكتسِحة، نرى مشهداً آخر مختلفاً تماماً، متمثلاً في جماعة صغيرة تقف إلى جوار المتألم القدوس وهو في لحظاته الأخيرة. إنه مشهد "نساء عند الصليب" يرفعن عيونهن الدامعة نحو المصلوب ناطقة بكل معاني الولاء والوفاء.

كانت الجلجثة في ذلك اليوم مكتظّة بالناس أشكالاً وألواناً. كثيرون أتوا بدوافع مختلفة متباينة: مِنهم مَن أتى بدافع الفضول وحب الاستطلاع، ومِنهم مَن جاء بدافع التشفي والشماتة، ومِنهم مَن كان يؤدي مهمة. أما هذه الجماعة فأتت بدافع المحبة والوفاء.

كانت هذه الجماعة تتكون من أربع نساء*، وكان معهن يوحنا الحبيب تلميذ المسيح الوفيّ. أما النساء الأربع فهن: مريم أم يسوع، وأخت أمه (وهي على الأرجح سالومي أم يعقوب ويوحنا ابني زبدي. ولم يذكر يوحنا اسمها، فكما تحاشى ذكر اسمه تواضعاً منه هكذا أيضاً تحاشى ذكر اسم أمه)، والمرأة الثالثة هي مريم زوجة كلوبا، والرابعة مريم المجدلية.

شبَّه أحدهم هذه الجماعة الصغيرة التي عند صليب يسوع وسط جمهور الفجار بشجيرة ورد صغيرة تطل بين أشجار الشوك والعوسج**، وهي كأكاليل الزنبق البديعة الطاهرة تحيط بصليب المخلِّص الذي يدنو من الموت.

وللنساء الحق أن يفتخرن على الرجال لما أظهرنه في حياة المسيح وفي موته. فلا نقرأ عن امرأة خانت المسيح أو أنكرته، ولا امرأة أهانت المسيح أو قاومته. بل على العكس، فبينما هرب تلاميذه الرجال كلهم، كان عند الصليب أكثر من امرأة. إنهن كن آخر من غادر المشهد في غروب يوم الصليب، كما كُنَّ أول من ذهب إلى القبر في فجر يوم القيامة.

أوليس هذا عجباً، أن يلوذ الرجال بالفرار وتبقى النساء صامدات؟! حقاً «قِسِيّ الجبابرة انحطمت، والضعفاء تمنطقوا بالبأس» (١صم٢:٤).

تأمل أيها القارئ العزيز ماذا تستطيع النعمة أن تعمل للضعيف

* هناك من يعتقد أن هذه الجماعة كانت تتكون من ثلاث نساء فحسب هن مريم أم يسوع، وأخت أمه، وهي بعينها مريم زوجة كلوبا، ثم مريم المجدلية. لكننا نستبعد أن أختين يكون لهما الاسم ذاته. ونفضل أن نقرأ هذه الأسماء باعتبارها مذكورة اسمين اسمين: المجموعة الأولى مريم أمه وأخت أمه، والثانية مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية.

** يلفت النظر أن يوحنا ذكر هؤلاء النساء الأربع مباشرة بعد أن أشار إلى الأربعة عساكر الذين صلبوا يسوع، ثم اقتسموا ثيابه بينهم وعلى لباسه ألقوا قرعة. فحقاً ما أشد المباينة بين جماعة وجماعة!

وبالضعيف! فها صاحِيات القلوب الواهنة الضعيفة يقفن في ثبات وشجاعة إلـى جوار «مكروه الأمة»، لا يعبأن بالإهانة التي قد تلحقهن، ولا بالخطر الذي قـد تتعرض له حياتهن، لعلهن يستطعن تخفيف أحزان «المهان النفـس» وآلامـه، فإن ذلك المصلوب كان بحق هو محور حياتهن.

قد يقول أحدنا إنه كان أيسر على النساء في ذلك اليوم العصيب الوجود فـي مكان الصليب. وقد يكون لهذا القول نصيب من الصحة، لكن الشـيء الجميـل أنهن استخدمن تلك الإمكانية استخداماً حسناً. وما أجمل أن يبادر الواحـد منـا ليعمل الحسن الذي يعرفه، فإن «مَنْ يعرف أن يعمل حسـناً ولا يعمـل، فذلـك خطية له» (يع٤:١٧).

أمه كانت عند الصليب

ومن بين هؤلاء النساء الأربع اللاتي وقفن عند الصليـب سـنركز حديثنـا على شخصية واحدة هي أم ذلك المصلوب، التي هي بحق الأم المثاليـة لكـل الأجيال ولكل الأجناس. لقد تخاذل تلاميذ المسيح وهربوا، لقـد تخلـى عنـه أصدقاؤه ومحبوه ووقفوا تجاه ضربته، لقد تنكرت له أمّته واحتقرتـه مفضلـةً باراباس القاتل عليه. أما أمه، فهل يمكنها أن تهرب منه أو تتنكّر لـه؟ حاشـا بل ها هي قريبة منه في موته كما كانت في مولده.

وقصة المطوَّبة مريم هي قصة امتزج فيها الشرف والمجد بالمعاناة والألـم. فمن بداية الرواية، لمَّا ظهر لها الملاك جبرائيل وبشّرها، يذكر لنا البشير لوقـا أنها «اضطربت من كلامه، وفكّرت: ما عسى أن تكون هذه التحيـة». ولكـن اضطرابها وأفكارها في ذلك اليوم كانت فقـط مقدمـة لاضطرابـات وأفكـار

ومعاناة كثيرة لحقت بعد ذلك.

أيمكن أن ننسى نظرات الشك والريبة في أمرها من جميع عارفيها؟ حتى خطيبها يوسف أراد تخليتها سراً، لولا ظهور ملاك السماء له. ثم أننسى بعد ذلك، يوم حان موعد ولادة الطفل، إذ لم يكن لهما موضع في المنزل فولدت الوليد العظيم ووضعته في مكان لا يليق ببشر، بل في مكان للبهائم؟ ثم أننسى كيف اضطرت بعد الولادة أن تهرب بالصبي يسوع إلى مصر، إذ طلب هيرودس أن يقتله، فقاست في مصر قسوة الاغتراب بين قوم لا تعرفهم دون ذنب فعلت أو جريرة؟

ومرت الأعوام، وخرج السيد العظيم للخدمة الجهارية، وطبقت شهرته الآفاق، والأم تترقب تحقيق وعد الملاك بالعرش والمُلك. لكنها أيضاً كانت تتابع الموقف العدائي الملتهب الذي وقفته أمّته منه. لقد سمعت باحتقار الأمة له، وعدائها نحوه، ووعيدها ومؤامراتها، وقلب الأم يخفق إشفاقاً وترقباً.

بالإجمال نقول إنه لم تعرف أم غبطة نظير غبطة المطوبة مريم، كما لم تقاسِ أيضاً أم نظيرها آلاماً ومعاناة على مدى حياتها، فكم بالأحرى الآن وهي عند الصليب! لعلها تذكرت أنه من أكثر من ثلاثين عاماً خلت، وهي ما تزال في أيام شبابها، عندما حملت على ذراعيها وليدها فخورة ومعتزة به، سمعت من سمعان البار كلاماً نبوياً غريباً إذ قال «إن هذا قد وُضِع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل»، ثم قال لها «**وأنت أيضاً يجوز في نفسك سيف**» (لو٢:٣٥). والأرجح أنها لم تفهم معنى كلماته وقتذاك. ولعلها تفكرت كثيراً، في ما بعد، ما عسى أن تعنيه نبوته هذه. أما الآن، وهي إلى جوار الصليب، فقد عرفت كل شيء.

لقد استيقظ سيف رب الجنود على راعي إسرائيل ليضرب المسيح (زك١٣:٧)، لكن في الوقت نفسه كان هناك سيف آخر يجتاز في أحشائها وهي بجوار ذيّاك الصليب.

أحزان بحر المر

لعلك لاحظت، عزيزي القارئ، أنه من بين النساء الأربع اللائي كن عند الصليب كانت ثلاثة منهن باسم مريم، الاسم الذي يعني مرار. فيقال إن مريم بالعبري هي كلمة من مقطعين: المقطع الأول بمعنى مر، والمقطع الثاني "يم" بمعنى بحر. فمريم تعني، كما يرى البعض، "بحر المر". ولقد كان عند صليب يسوع مرار مثلث، وهؤلاء المريمات كن يتجرعن المرار والعلقم في أفظع صوره، إلا أن المرار الذي كانت فيه أم يسوع كان أشد أنواع المرار، وذلك للأسباب الأربعة الآتية:

> نعم، من يقدر أن يقدّر حجم الكارثة الدهماء التي ألمت بالمطوّبة مريم وهي ترى ابنها بين أيدي أعداء عتاة، يقاسي الهوان ويتجرع الموت وهو فوق صليب العار، وهي تراه يموت وتعجز عن مواساته.

أولاً: إنّ من أصعب الأمور على قلب الأم أن ترى ابنها يموت. فأي أم ترجو أن ابنها هو الذي يواريها التراب. لكن أية كلمات تصف لنا حزن أم الرب وهي تنظر إلى ابنها يموت مُعلّقاً على صليب! إن يسوع لم يكن مجرّد ابنٍ وفيّ، بل كان هو كمال الكمال في كل شيء. إنه لم يفعل شيئاً ليس في محله، ولم يترك شيئاً في محله إلا وعمله. إنه، بين البنين، «كالتفاح بين شجر الوعر». وتلك التي كانت تفخر بأنها أمه، كيف لا يخترق السيف أحشاءها وهي تراه يموت أمام عينيها؟

ثانياً: لم يكن المسيح مجرد شخص نبيل تفخر به أي أم فحسب، بل لقد كانت أمه، قبل أي شخص آخر، تعرف حقيقة أصله ومقدار عظمته. لقد قال

لها الملاك جبرائيل يوم أن بشّرها بولادته «هذا يكون عظيماً، وابن العلي يُدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لمُلكه نهاية». أمّا الآن فلها أن تتساءَل بقلبها الكئيب، وهي تشاهد شمسه تغيب: أين تلك العظمة المُتنبأ عنها؟ وأين ذلك العرش وذلك الملكوت؟ أيكون الملاك قد خدعها؟ أتقول مع أيوب في بلواه: «فأين إذاً آمالي؟ آمالي مَنْ يعاينها؟». نعم لقد زاد من قسوة الحزن على موت ابن بار، أنها كانت تحت وقع أمل ينهار، والجُرح عميق، والسيف بتّار!

ثالثاً: لكن حُزن قلبها المكلوم قد تضاعف لشيء ثالث: فليس أن ابنها يموت فقط، وأن العظيم وابن العلي «يُقطع وليس له»: أي ليس له شيء على الإطلاق. نعم لم يكن ذلك فحسب، بل ها إنه يموت ميتةً كهذه. يموت مصلوباً على خشبة، أي يموت موت اللعنة، ويُحصَى مع أثمة. ويُعيَّر من القادة والعامة بأشنع العبارات في مسمعه ومسمعها أيضاً. نعم، مَنْ يقدر أن يُقدِّر حجم الكارثة الدهماء التي ألمَّت بالمطوَّبة مريم وهي ترى ابنها بين أيدي أعداء عُتاة، يقاسي الهوان ويتجرع الموت وهو فوق صليب العار.

وأما **رابعاً:** فهي تراه يموت وتعجز عن مواساته. وهنا أقتبس كلمات آخَر قال: "ها دماؤه تنزف من جبينه وهي لا تقوى على تجفيفها. حَلْقه يبس، وتحس بحاجته إلى الشُرب، لكن غير مُصرّح لها أن تُبلّله بقطرة ماء. يداه، تلك اليدان اللتان أمسكت بهما في طفولته، وقدماه اللتان درّجتهما في أولى خطواته، ها هي الآن مُسمّرة بالمسامير. وثغره الباسم التي كانت هي أول من طبعت عليه قبلات فمها، ها هو الآن في حالٍ آخر. وها الجبين الوضّاح تعلوه الأشواك والجراح. بالإجمال «كان منظره كذا مُفسداً أكثر من الرجل» (إش٥٢: ١٤). إنها تُحس بوخزات المسامير، وتلك الأشواك التي طوّقت رأسه كانت كأنها

غلالة من لهب حول قلبها هي. وتعبيرات المُعيّرين جرحتها هي مثلما جرحته".

بينَ الجموعِ الزاحفةْ — أمْ هُنالِكَ واقفةْ
بالحزنِ حاكت ثوبَها — والنفسُ فيها راجفةْ
ساقوا ابنَها للذبحِ في — غدرٍ وقلبٍ قدْ جَفَا
نظَرتْ إليهِ حزينةً — تبكي بعينٍ آسفةْ
صلَبوا الذي بالخبزِ أطـ — ـعَمَهُم ومرضَاهُم شفى
كان الرجاءُ بِكَ بُنيّ — وها الرجاءُ بِكَ انطفا

إن المطوّبة مريم على مثال ابنها البار، هي أيضاً مُختبرة الحَزَن. ومع أنها كانت تُعاني هذا الشَجَن المُذيب، فمع هذا لا نراها في حُزن هستيري ولا في نوبات تشنّج: لا نقرأ عن لطماتها ولا عن صرخاتها، ولا نقرأ أنها كانت منهارة، بل يقول البشير: «وكانت واقفات عند صليب يسوع مريم أمه». كانت تعاني حزن روحها العميق في صمت!

ماذا لو كانت هربت لكي لا ترى هذا المنظر؟ ماذا لو خارت قواها؟ ماذا لو سقطت مغشياً عليها؟ يقيناً كنا سنلتمس لها المعاذير والأسباب القوية. لكنها إذ رأت أنها لا تستطيع أن تخفف من آلامه، فإنها على الأقل لا تزيدها إذا رآها منهارة، وقد فارقتها قواها. لذا نقرا أنها كانت واقفة!

إن يعقوب، الرجل، لم يحتمل أن يرى قميص ابنه المحبوب يوسف مغموساً في الدم. أما المطوّبة مريم فقد رأت مَنْ هو أعظم من يوسف وقد اقتسم العسكر كل ثيابه، وجسده كله ينزف الدم، ويموت أمام عينيها كما يموت السفهاء!

يا لعظمة التعبير «واقفات»! يا للبطولة والشجاعة والثبات، بالإضافة إلى الحب والوفاء الذي نستشفه من قول الوحي «كانت واقفات عند صليب يسوع»!

هذا ما كان من مريم أمه وباقي النساء الواقفات معها في ذلك اليوم العصيب، فماذا بالنسبة لك أيها القارئ الحبيب؟ إن الصليب في نظر اليهودي عثرة، وفي نظر اليوناني جهالة، فما هو في نظرك أنت؟ أتراكَ تنفر من الصليب الذي كان وسيلة فدائك؟ أتخجل من المصلوب الذي أحبك ومات لأجلك؟ عارٌ عليك، إذا فعلت، عظيم!

لقد كانت واقفات عند صليب يسوع في ذلك اليوم أمه وباقي النساء، أفلا تقف أنت اليوم؟ هلا أسمعك تُنشد مع المرنم بشموخ:

قِفْ بجوارِ الصليبْ أيُها الجندي الجبارْ
سنغلبُ عَنْ قريبْ ونرجعُ بالإنتصارْ

لما رأى يسوعُ أمَه

لقد أشرنا في ما سبق إلى آلام المطوَّبة مريم، أما هو، حبيبنا يسوع، وأما آلامه فمَن فينا يقدر أن يدركها؟ لقد تحدثنا عمًّا عملته المطوّبة مريم لأجله: لقد عملت كل ما كانت تستطيع أن تعمله. أما هو، ذلك المصلوب، وأما ما عمله هو لأجلها بل ولأجل كل البشر، فلقد كان يعمل ما يستطيع هو وحده أن يعمل، وما لم يكن أحد سواه يستطيع أن يعمله. إن عملها كان منتهى الإخلاص، وأما هو فقد قام بصنع الخلاص.

يقيناً كانت آلام النساء في ذلك اليوم، ولا سيما آلام أمه، عظيمة، أما آلامه هو فكانت بكل يقين أشد بما لا يُقاس. كانت آلامهن، وهن واقفات عند الصليب، شديدة، أما آلام المصلوب نفسه فما كان أشدّها! لقد كانت كافية لتجعله ينسى، في سعيرها، كل شخص وكل شيء حوله. إن شدة آلام النساء أعجزتهن عن

الكلام، فلم تستطع واحدة منهن أن تنطق ببنت شفة، أما هو ففي آلامه الأشد نطق وتكلم. فتعالوا بنا نستمع إلى أقواله العجيبة في هذا المشهد المذيب.

لقد كان المسيح كمال الكمال في كل شيء، وقبل مولده بمئات السنين قال عنه إشعياء النبي «ويُدعى اسمه عجيباً» (إش٩:٦). أكان يمكن أن ذلك الكامل العجيب لا يهتم بأمه*؟! لقد ذكر قاتليه فهل ينسى أمه؟! أكان يمكن أن ينسى تلك الأم الحزينة الواقفة عند الصليب؟!

إن شدة آلام النساء أعجزتهن عن الكلام فلم تستطع واحدة منهن أن تنطق ببنت شفة، أما هو ففي آلامه الأشد نطق وتكلم بأقوال عجيبة في هذا المشهد المذيب.

قال واحد: "في حياة ربنا يسوع المسيح من أولها إلى آخرها نجد مزيجاً عجيباً من العظمة والاتضاع، فإذا لمع شعاع من أمجاد لاهوته مضيئاً مُبرقاً لا نلبث أن نراه إنساناً مثلنا من لحم ودم". وهو عينه ما نراه هنا عند الصليب.

عندما صلّى المسيح وهو فوق الصليب لأجل أعدائه، كان هذا من صميم رسالته، كقول الوحي «وهو حمل خطية كثيرين، وشفع في المذنبين» (إش٥٣:١٢). وإن كان قد اهتم بلصٍ تائبٍ وثق به، فهذا أيضاً يتفق ورسالته باعتباره المخلِّص كقوله هو «لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلِّص ما قد هلك» (لو١٩:١٠). لكن أن يهتم في ساعةٍ كهذه بأمر عائلي، ويكرِّس بعض وقته لشأن من شئون الحياة العادية فهذا هو الكمال الإنساني بعينه.

---

* يمكننا أن نستنتج من العديد من فصول العهد الجديد أن يوسف رجل مريم كان قد مات منذ فترة (انظر على سبيل المثال مت١٣:٥٥)، وبالتالي فإن المطوّبة مريم كانت في ذلك الوقت أرملة، وكانت مسؤولية العناية بها تقع أساساً على الرب يسوع الذي يُسمّى بأنه «ابنها البكر» (مت١:٢٥؛ لو٢:٧).

لاحَظ أحدهم أن الرب يسوع من فوق جبل الموعظة وهو يُلقي موعظة الجبل الواردة في متى ٥-٧ أضفى أبعاداً عظيمة ومجيدة على كل وصايا الناموس تقريباً، باستثناء الوصية الخامسة التي تقول «أكرِمْ أباك وأمك». لكن ما لم يقله الرب من فوق الجبل قاله من فوق الصليب، لا بوصفه معلّماً قديراً، بل مثالاً لا نرى له نظيراً. إن سيدنا هنا بمثاله الرائع يضفي على تلك الوصية ما لم يكن ممكناً أن تفعله أقوى العظات، ولو استغرقت ساعات.

«فلما رأى يسوع أمه، والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً، قال لأمه: يا امرأة هوذا ابنك، ثم قال للتلميذ هوذا أمك».

كان الرجاءُ بكَ بُنيّ	وها الرجاءُ بكَ انطفا
خوفي، فليسَ الآنَ ليْ	سندٌ ولا ابن أعرفَهْ
فإذا بصوتِهِ فائضاً	بالحبِّ يعلو هاتفا
يا امرأةُ هوّذا ابنُكِ	كيفَ أفوتُكِ خائفةْ
عجبي على المصلوبِ ما	أنْسَتهُ كربتُه الوفا
ربَّاه ما أحلى حَشَاكْ	وما أرقَ وألطفَ

إن الرب لم ينسَ أن المطوّبة مريم امرأة وأنها أم. وأية أم ممكن أن تتحمل موت ابنها أمامها، ولا سيما إذا كان «كالتفاح بين شجر الوعر كذلك (هو) بين البنين»؟! لهذا يقول الوحي «ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته».

والآن دعني أقول لك أيها القارئ العزيز: إن القلب الذي أشفق وهو على الصليب، ما زال يُشفق على كل متألم ويرثي لكل مُجرَّب. إنه يحيط باهتمامه وعنايته كل خاصته الذين في العالم والذين أحبهم إلى المنتهى (يو١٣: ١).

وهو إن كان قد اهتم بأمه، فلا ننسَ أنه قال مرة «إن مَنْ يصنع مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي» (مت١٢:٥٠). فليتعزَّ المحزونون وليتشجع المحتاجون لمن يهتم ويرثي (ابط٥:٧؛ عب٤:١٥،١٦)، وليتعلَّم المتوحدون حقاً أن يلقوا كل رجائهم عليه هو، ذاك الذي له قال المرنم:

قلبُكَ ينبضْ حناناً حتى مِنْ فوقِ الصليبِ
يدُكَ تجرحْ وتعصبْ أنتَ إلهي الحبيبِ

يا امرأة، هوذا ابنك

«فلما رأي يسوع أمه، والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً، قال لأمه: يا امرأة، هوذا ابنك». يتساءل البعض: لماذا خاطب المسيح المطوَّبة مريم بالقول «يا امرأة» ولم يقل لها "يا أماه"؟

وبداية يؤكد العارفون باللغة وباستخداماتها أنه ليس في كلمة امرأة في الأصل اليوناني ما يفيد أي عدم احترام، بل إنها تعنى حرفياً «يا سيدة». لكن يظل السؤال: لماذا لم يقل لها: "يا أماه"؟!

هذا السؤال الطبيعي شد المفسرين كي ما يُدلي كل واحد منهم بدلوه ويقول رأيه.

قال بعضهم: إن كلمة "يا أماه" في ذلك الوقت العصيب كانت ستزيد جرح قلب المطوَّبة مريم، فتحاشى الرب أن ينطق بها واستخدم بدلها كلمة «يا امرأة»، أو يا سيدة.

وقال آخرون: إن المسيح وهو على الصليب كان مصلوباً باعتباره نسل المرأة المُتنبأ عنه في الجنة بأنه «يسحق رأس الحية» (تك٣:١٥). لهذا خاطب

أمه بالقول: «يا امرأة»، ليؤكد على أنه هو «نسل المرأة».

وقال فريق ثالث: إن بين ما ورد في أول إنجيل يوحنا وما ورد في آخره علاقة. ففي يوحنا ٢ قال الرب لأمه في عُرس قانا الجليل: «ما لي ولك يا امرأة؟ لم تأتِ ساعتي بعد». وهنا في آخر الإنجيل قال لها «يا امرأة، هوذا ابنك». كلا التعبيرين ورد في إنجيل يوحنا الذي يحدثنا عن لاهوت المسيح باعتباره الكلمة الأزلي، ابن الله الوحيد.

من الرب نتعلم أنه لا ينبغي أن نجعل العلاقات العائلية تتداخل في خدماتنا الروحية مهما صغرت، كما أنه لا يجوز أن نجعل مهامنا الروحية، مهما عظمت، تنسينا الاهتمام الواجب علينا بالأمور العائلية.

لكن في هذين التعبيرين، اللذين ورد أحدهما في بداية خدمة الرب والآخر في نهاية خدمته، نرى الكمال العجيب (وهو ما ميَّز المسيح دائماً) في كيفية التوفيق بين المهام الروحية والأمور العائلية، أو بالأحرى العلاقة بالله وأموره، والعلاقة بالأهل وشؤونهم. ففي عُرس قانا الجليل، عندما أرادت المطوَّبة مريم أن توجِّه الرب في خدمته، لم يسمح لها، وقال لها بكل وضوح: «ما لي ولك يا امرأة؟». فمؤدى قوله: "صحيح أنَّ المسألة التي طلبتِ مني التدخل فيها هي أمر عادي «ليس لهم خمر»، لكن ما دامت تمسّ خدمتي التي بها أخدم الآب وحده، فما لي ولكِ؟" أما الآن وهو على الصليب، وهو يقوم بأعظم عمل في التاريخ، بل أعظم من خَلق السماء والأرض، فإنه لا ينسى أن ينشغل بأمه، ويرتب أمورها قبل رحيله فيقول لها «يا امرأة، هوذا ابنك».

من هذا نتعلم أنه لا ينبغي أن نجعل العلاقات العائلية تتداخل في خدماتنا الروحية مهما صغرت، كما أنه لا يجوز أن نجعل مهامنا الروحية، مهما عظمت، تنسينا الاهتمام الواجب علينا بالأمور العائلية.

وقال فريق رابع في تعليل استخدام الرب للتعبير «يا امرأة»: إن المسيح لمَّا أتى إلى الأرض، أخذ - له المجد - علاقات طبيعية كالتي لنا نحن تماماً. لكن الموت والصليب وضعا نهاية لهذه العلاقات الطبيعية، كقول الرسول «نحن من الآن لا نعرف أحداً حسب الجسد، وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لكن الآن لا نعرفه بعد. إذاً إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة: الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل قد صار جديداً» (٢كو٥:١٦،١٧). وكما أنهى الصليب العلاقات الطبيعية الجسدية، فإن القيامة وحلول الروح القدس يوم الخمسين أسَّسا لنا مع المسيح علاقة جديدة لن تنفصم أبداً. بالقيامة ارتبطنا بالمسيح بصورة أمجد، فصرنا روحاً واحداً، وصرنا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه.

وبالنسبة للمطوَّبة مريم، فمع أننا نرجِّح أن المسيح ظهر لها، كما ظهر للتلاميذ، بعد القيامة «الذين أراهم نفسه حياً ببراهين كثيرة، بعد ما تألم، وهو يظهر لهم أربعين يوماً» (أع١:٣)، فإنه التقاها على أرضية جديدة. وكأن الرب هنا في كلمات استيداعه أمه لعناية يوحنا كانْ يُهيِّئها للنقلة من علاقتها الطبيعية بيسوع، إلى علاقتها الروحية بالمسيح!

ولنا نحن في هذا درس وسند. فكم نحسّ بالخسارة عندما يرقد بعض ممن كانت لنا بهم ارتباطات عائلية خاصة وقوية. ونحن نعلم أن هذه العلاقة لن تكون في السماء كما كانت على الأرض، ولا يمكن أن تكون، لكن كاهننا العظيم، ربنا يسوع، اختبر أيضاً، من فوق الصليب، هذا النوع من الحزن والألم، ولهذا فهو يقدر أن يرثي لنا في هذا أيضاً، كما في كل شيء آخَر.

تكليف وتشريف

يقول الوحي عن المسيح: «ثم قال للتلميذ: هوذا أمك. ومن تلك الساعة

أخذها التلميذ إلى خاصته». ومع تقديرنا كل التقدير للمطوّبة مريم، لكن يؤسفنا أن البشر أضفَوا عليها ما لا نجد له أدنى سند في كلمة الله، فهي ليست كما يزعم البعض "حامية الكنيسة، ومُعينة البشرية". فالوحي هنا يخبرنا أنه «من تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته». ومن هذا نفهم أنها كانت محتاجة إلى رعاية رجل يتولى الاهتمام بشؤونها، فيوحنا هو الذي أخذ المطوّبة مريم لعنايته، وليست هي التي أخذت يوحنا لعنايتها. وهي إن كانت تحتاج لعناية غيرها من جهة الزمان، فكيف تُعين غيرها من جهة الأبدية؟!

ثم قال للتلميذ: «هوذا أمك». وهذه بكل يقين دلالة ثقة كبيرة، أن يستودع المسيح أمه ليوحنا ليعتني بها. ونحن لا نتعب كثيراً لنعرف لماذا اختص الرب يوحنا بهذا الأمر دون الباقين، إذ يقول الوحي هنا عنه إنه التلميذ الذي كان يسوع يحبه. فالمحبة تؤتَمَن على أعظم الودائع، وتُكلَّف بأعظم الأعمال. والمحبة من الجانب الآخر تُسرّ أن تَخدِم. ومَنْ فينا يشك لحظةً أن يوحنا، عندما قبل هذه المأمورية، اعتبر الأمر تشريفاً من الرب لا تكليفاً؟

ولنا في هذا أيضاً درس. فهل عَهِد الرب إليك الاعتناء ببعض من أقربائك؛ أرامل كانوا أم أيتاماً؟ لا تعتبر ذلك عبئاً ثقيلاً بل اعتبره شرفاً نبيلاً. صحيح أن هؤلاء لن يكونوا على مستوى تقديرنا للمطوَّبة مريم، لكن اسمع ما سيقوله الملك للذين عن يمينه من الذين اعتنوا وأطعموا وزاروا المضطهدين الأذلاء في فترة الضيقة العظيمة: «بما أنكم فعلتموه بأحد اخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (مت٢٥:٣٥-٤٠).

يعتقد بعضهم أن يوحنا كان قريباً للمسيح حسب الجسد. لكن ليس لهذا السبب استودعه الرب أمه ليعتني بها. فهناك آخرون – على أي حال – كانوا

أكثر قرباً للرب من يوحنا، هم الذين يقول عنهم الوحي «اخوة الرب*». كلا، ليس لمجرد القرابة الجسدية، بل لأنه كان أقرب التلاميذ إلى قلب السيد. فهو الذي كان يتخذ مكانه في حضن يسوع، ويتكئ على صدره. نعم، إن المحبة هي التي يُشرفها الرب بأعظم الأعمال وأمجدها!

وقد يقول قائل: لكن ألم يشكّ يوحنا في المسيح كباقي التلاميذ الذين قال لهم الرب «كلكم تشكّون فيَّ في هذه الليلة» (مت٢٦: ٣١)؟ أولم يهرب مع باقي التلاميذ لحظة القبض على سيدنا كقول الوحي «حينئذٍ تركه التلاميذ كلهم وهربوا» (مت٢٦: ٥٦)؟ نعم، هذا صحيح. لكن يوحنا الذي جبن وهرب، عاد من جديد ليقف إلى جوار المريمات الحزينات عند جذع الصليب.

المحبة تؤتَمن على أعظم الودائع، وتكلَّف بأعظم الأعمال. والمحبة من الجانب الآخر تُسرّ أن تَخدِم.

والرب لم يوبّخه على ضعفه، ولم يعاتبه على جبنه، بل بلطفه الغامر، وحبه الغافر، كلّفه هذا التكليف العظيم، بل شرّفه بهذا الشرف الكبير.

هل قصَّر أحدنا أو ضَعُف؟ هل جَبُن واحد منا أو فشل؟ إننا إن عدنا إليه الآن فسنرى أنه ما زال يحبنا كالأول. بل ربما ينتظرنا عمل وخدمة أعظم مما عملناه في كل ما سبق من حياتنا. إنه إله كل نعمة الذي أظهر النعمة تجاه صالبيه، أفلا يظهرها بالأولى جداً نحو تلاميذه؟ فمهما كان ضعفك أو فشلك، فعُدْ إليه، إنه صفوح غافر!

---

* يعتقد بعضهم أن سر استيداع الرب أمه ليوحنا، وليس لإخوته حسب الجسد هو أنهم حتى ذلك الوقت لم يكونوا يؤمنون به (يو٧: ٥). ولقد كان هذا مذنباً لقلوبهم، قادهم إلى الإيمان به. ولهذا فقد ظهر الرب بعد قيامته من الأموات ليعقوب أخي الرب (١كو١٥: ٧)، فصار واحداً من الرسل (غل١: ١٩).

العبارة الثالثة من فوق الصليب

كلمات التعزية

وكان واحد من المذنبين المعلقين يجدف عليه قائلاً: إن كنت أنت المسيح، نخلّص نفسك وإيانا! فأجاب الآخر وانتهره قائلاً: أوَلا أنت تخاف الله، إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟ أما نحن فبعدل، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئاً ليس في محله. ثم قال ليسوع: اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك. فقال له يسوع:

الْحقَّ أَقُولُ لَكَ:

إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ

(لو ٢٣:٣٩-٤٣)

هذه الأقوال العجيبة التي انفرد بذكرها لوقا البشير، والتي تحدثنا عن خلاص اللص التائب، تستحق أن تُكتب بماء الذهب، لأن أعداداً لا تُحصَى من المفديين مدينون لها بسعادتهم الأبدية. فهي تصوِّر لنا بصورة منقطعة النظير قوة المسيح في الخلاص، واستعداده المطلق في قبول كل من يقبل إليه. ونلاحظ أن إنجيل لوقا في بدايته ينفرد أيضاً بذكر أول موعظة للمسيح، قالها في مجمع الناصرة، فتعجبت الجموع من كلمات النعمة الخارجة من فمه (لو ٤: ١٦-٢٢). وما زال - تبارك اسمه - حتى آخر لحظة له على الأرض هو هو، الممتلئ بالنعمة. وهنا في هذه الكلمة الثالثة ما زلنا نندهش من كلمات النعمة التي ردّ بها على ذلك اللص، وترحيب النعمة في قبول شخص كهذا.

يسوع وسط المذنبين!

ونريد في البداية أن نتأمل في الموضع الذي صُلِب فيه المسيح. يذكر لنا مرقس البشير «صلبوا معه لصين، واحداً عن يمينه وآخَر عن يساره، فتم الكتاب القائل: "وأُحصيَ مع أثمة"». والأرجح أن البشر الأشرار أرادوا الإمعان في تحقير المسيح فصلبوه بين لصين عن يمينه وعن يساره، فاللصان،

نظراً لتشابه جريمتهما، بل وربما لاشتراكهما في الجريمة ذاتها، كان المفروض أن يُصلَبا بعضهما بجوار بعض، وأن يُصلَب المسيح في مكان منفصل، فتهمته التي لفقوها ضده هي تهمة مختلفة تماماً، لا علاقة لها بالسرقة من قريب ولا من بعيد، إلا أن الناس الأشرار قصدوا التشهير بالمسيح، فصلبوه وسط اثنين من اللصوص. لكن أكان هذا مجرد صدفة؟ أكان هو مجرد تصرف أخرق من جانب البشر الحاقدين؟ وإذا كنا نؤمن أن وراء كل كبيرة وصغيرة من أمورنا إله عظيم دقيق، فهل يمكن أن يكون صلب المسيح في هذا المكان هو مجرد صدفة؟ كلا، فالأمر أعظم من ذلك بكثير!

فأولاً: كان صلب المسيح في ذلك المكان إتماماً للنبوة التي قالها إشعياء عن المسيح قبل صلبة بنحو سبع مائة عام «وأُحصِيَ مع أثمة» (إش٥٣: ١٢). هذا ما أكّده مرقس في إنجيله (مر١٥: ٢٨).

ثانياً: هناك هدف آخر، وهو أن يكون المسيح قريباً من الذين أتى ليخلّصهم، ومضى إلى الصليب ليموت نيابة عنهم. ولقد كان صلب المسيح بين المذنبين بركة لأحدهما، إذ خَلُصَ واحد منهما بالفعل في آخر لحظة. ويا لها من صورة معبِّرة ترسمها لنا ريشة الطبيب الحبيب لوقا، فإنَّ خاطئاً تائباً لن يكون بعيداً البتة عن المخلص المنعم!

تبارك اسمك يا ربنا: في ولادتك أحاطت بك البهائم، ثم في موتك نراك وقد أحاط بك الذين لفظتهم البشرية. فأنت المخلص الذي لا نظير لتواضعك. أظهرت تواضعك العظيم في وَلادتك، وخلاصك العظيم في موتك.

يخبرنا البشيران متى ومرقس أن اللصين في البداية اشتركا معاً في تعيير المسيح (مت٢٧: ٤٤؛ مر١٥: ٣٢). لكن بعد ذلك حدث اختلاف بين اللصين

فأحدهما واصل تعييره للمسيح، والآخر لمس روح الله قلبه وتبدل مسيره وتغيَّر مصيره. وبعد ساعات فصلت أحدهما عن الآخر هوة عظيمة أُثبِتت، لا لسبب إلا لأن أحدهما آمن بالمخلِّص فخَلُصَ، والآخر رفض فرُفِض.

وهذه الحادثة تحكي لنا قصة الفداء موجزة مركزة. فها المخلّص الفادي على الصليب، وبجواره إنسان خاطئ تاب وآمن فخلُص، وفي المقابل خاطئ آخر احتقر ورفض فهلك. كلاهما كان له الماضي الأثيم نفسه، وينطبق عليهما قول الكتاب «لأنه لا فرق، إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله» (رو٣: ٢٢،٢٣). لكن ليس ذلك فقط، بل كان كلاهما على بُعدٍ متساوٍ من المخلص، وكانا تحت الظروف عينها، وكلاهما شاهد مشهد الصليب المؤثِّر في الوقت عينه، لكن واحداً تأثر وتغير وتبرر، وبقي الآخر كما كان. هل هذا عجيب؟ ألا نقرأ عن أول أخوين: أن هابيل تبرر وخلص، وأما قايين فهلك؟ وهنا واحد من اللصين خلص، والآخر هلك*.

إذاً لقد قسم المسيح وهو على الصليب الأوسط العالم إلى فريقين. وهكذا هي الحال دائماً: فقد وُضِعَ المسيح لسقوط وقيام كثيرين (لو٢: ٣٤)، والبشارة بالصليب هي للهالكين جهالة وأما عندنا نحن المخلَّصين فهي قوة الله (١كو١: ١٨)، وأخبار الإنجيل هي لأناسٍ رائحة حياة لحياة وللآخرين رائحة موت لموت (٢كو٢: ١٦). ولا نجد تفسيراً لكل هذا سوى مطلق سلطان الله.

لقد اشترك اللصان في البداية – كما ذكرنا – في تعيير المسيح، مقلّدين في ذلك رؤساء الكهنة والكتبة. وما أتعس الحالة التي تردّى فيها هذان اللصان

* إن كانت كلمات الترفق السابقة التي قالها لكلٍّ من المطوبة مريم وتلميذه يوحنا قد ربطتهما معاً، كما يحب المسيح أن يفعل أيضاً مع قديسيه جميعاً (يو١١: ٥٢)، فإن كلمات التعزية التي قالها هنا للّص التائب، قد فصلته أدبياً وأبدياً عن زميله الذي كان رفيقه طول العمر!

وهما على شفا الأبدية، وما أتعسهما وهما يهدران بكلمات التعيير ضد المتألم القدوس وهو يقاسي آلامهما وعارهما بالذات. وقد يبدو غريباً أنّ اللصين كانا يعيران المسيح، فربما لم يرياه من قبل، وهو بالتأكيد لم يعمل لهما أي شيء يسيء إليهما، فلماذا يكرهانه؟ ولماذا أبغضه باقي البشر؟ بل لماذا تتكرر الصورة نفسها في هذه الأيام فيمن يكرهون المسيح وأتباعه؟ لماذا؟ الواقع أن ليس لكل ذلك سبب إلا ما قاله المسيح «أبغضوني بلا سبب» (يو١٥:٢٥).

صورة لي ولك

لكن دعنا نتحول إلى أنفسنا. فهذان اللصان هما صورة لنا كلنا، إذ يقول الوحي «وأنتم الذين كنتم قبلاً أجنبيين وأعداء في الفكر، في الأعمال الشريرة، قد صالحكم الآن في جسم بشريته بالموت» (كو١: ٢١،٢٢)، وأيضاً «لأنه إن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه» (رو٥: ١٠).

هل أسمع واحداً يعترض على هذا التشبيه ويقول: "أنا لست لصّاً، ولذلك فهذا اللص لا يشبهني ولا أنا أشبهه"؟ صديقي، أقول لك بإخلاص إن حالتك أسوأ بكثير مما تظن، والإنسان الطبيعي وهو في حالته الطبيعية هو لص من أسوإ أنواع اللصوص إذ أنه لا يسرق الناس بل الله (انظر ملا٣:٨). أولاً يقرِّر الكتاب المقدس أن الإنسان قصَّر في تمجيد الله وأنه تعدى اعتبارات مجده؟ ذكر أحدهم هذا المثل: هَبْ أن إنساناً كان يعمل في شركة معينة باعتباره ممثلاً لها في بلد معيَّن، وكانت الشركة ترسل له راتباً شهرياً مجزياً إزاء خدمته لها، وكان هو يصرف هذا الراتب فيما يعمل طول الوقت لمصلحة شركة منافسة. أخبرني، ألا يُعتبر هذا الوكيل لصّاً؟ والآن ألا ترى معي

المشابهة بين هذا الوكيل والإنسان عموماً؟ لقد أعطانا الله الصحة والقوة «لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد» (أع١٧:٢٨)، لكننا بدل من أن نمجد الله قمنا بخدمة عدوه: خدمنا الشيطان، وخدمنا الشهوات والخطايا، وعملنا كل ما يغضب الله بالفكر والقول والعمل. فكيف نستكثر على أنفسنا تهمة السرقة؟

إذاً فهذا اللص الذي نتأمل قصته يمثّل العداء نحو الله وتعدي حقه. لكن هناك شيئاً آخر يمثله ذلك اللص: إنه يمثّل العجز الكلي. نعم، ماذا كان بوسع لص قاتل، مُسمَّر اليدين والقدمين، أن يعمل ليخلِّص نفسه أو يرضي خالقه؟ لقد كان على شفا الموت، وما تبقّى له من العمر يجعله من العسير جداً عليه أن يعمل أي شيء، ووضعه الذي كان فيه يجعل من المستحيل عليه تماماً أن يفعل أي شيء. لكن خلاص الله لا يحتاج إلى وقت ولا إلى عمل. فيا لنعمة الله التي بغير حدود والتي تخلِّص شخصاً فاجراً عاجزاً كهذا اللص المصلوب! ويا لخلاص المسيح المُقدَّم لجميع البشر، ولأردإ البشر، كقوله الكريم «مَنْ يُقْبِل إليَّ لا أخرجه خارجاً» (يو ٦:٣٧).

تأمل معي في نعمة الله مع هذا اللص: إنه في الصباح كان مجرماً في السجن محكوماً عليه بالصلب، وقبل الظهر صار مخلصاً بالنعمة، وقبل الغروب غدا في الفردوس.

تأمل معي – عزيزي القارئ – في نعمة الله مع هذا اللص: إنه في الصباح كان مجرماً في السجن محكوماً عليه بالصلب، وقبل الظهر صار مخلَّصاً بالنعمة، وقبل الغروب غدا في الفردوس. من كان يتخيل هذا ممن كانوا ينظرون إلى ذلك اللص على الصليب في صباح ذلك اليوم: أنه بعد ساعات معدودة سيكون في الفردوس مع رب المجد؟!

خلاص في أسوإ الظروف

لكنى أريد الآن – بنعمة الرب – أن أركِّز النظر على الظروف التـــي فيــها خلص ذلك اللص. فهذا اللص التائب الذي خلّصته نعمة الله هو نجم ســاطع فـــي حلكة ليل الشر، يرشد الذين يبتغون ضياء الراحة وسط بحر العواصف وأمواجـــه المتلاطمة. ما أروع تلك القصة التي تصوِّر لنـــا نعمــة الله الكاملــة وخلاصــه الأبدي المجاني لنفس الأثيم الجاني! وما أعجب أن يحدث ميلاد لنفس إنسان فـــي مثل هذا المهد: الصليب! لكن حقاً «غير المستطاع عند النــاس مُســتطاع عنـد الله» (لو١٨: ٢٧). إن هذا اللص التائب التقى الرب في أسوإ وقت وأســوإ مكــان – بحسب النظرة البشرية – بالنسبة لكليهما، ومع ذلك فقد خلص.

فبالنسبة للمسيح، وصل إلى أدنى صور الاتضاع إذ كان «لا صورة لـــه ولا جمال فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه، محتَقَر ومخذول من النـــاس» (إش٥٣: ٢،٣). كان يبدو كأنه لا يقوى على أن يُخلِّص نفسه، فكيف يُخلِّص غـــيره؟ كــان فـــي مشهد رفض واحتقار من جموع الأمة وقادتها، فكيف لمجرم خارج عـــن القــانون أن يؤمن به؟ كان لأعدائه اليد الطُّولى، فيما المؤمنون به تخاذل إيمانـــهم وفــرّوا جميعاً، فكيف يؤمن به شخص لم يكن قد سبق له الإيمان؟ كــان مُســمَّر اليديــن متروكاً من أحبائه، فكيف لمن لم تسبق له معرفة به أن يعترف به؟ كان مــنزوع الثياب، مُحصىً مع أثمة، فكيف يكون هو الملك وكيف يكون هو الرب؟ لكن، يــا للعجب! إننا هنا نقتبس كلمات كلفن عندما قال: "لقد رأى ذلك اللص فـــي مشــهد الموت حياة، وفي الأطلال جلالاً، وفي الخزي مجداً، وفي الهزيمة نصرة، وفـــي الرُبط سلطاناً، وفي الصليب عرشاً، وفـــي إكليــل الشــوك تاجــاً". وإن المــرء ليتساءل: "تُرَى هل ارتقى إيمان منذ بدء الخليقة مثل إيمان هذا اللص التـــائب؟!" لقد خذلتْ المسيحَ أُمّتُه، وقد خانه تلميذه، وهرب الباقون جميعاً، وهــا هــو يُقطَــع

وليس له شيء على الإطلاق (دا٩١: ٢٦). لكن كان هناك شخص آمن به ورأى مجده، بل اعترف به جهراً. وبينما المسيح مُعلَّق على الصليب قال له: «اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك»! لقد وجد المسيح في ذلك اللص، في تلك الساعات العصيبة، باكورة ناضجة شهية من تعب نفسه. أليس لأجل أمثال هذا اللص احتمل المسيحُ الصليبَ مُستهيناً بالخزي؟

نعم، نحن لا نقدر سوى أن نقول إن خلاص هذا اللص في هذه الظروف هو معجزة من معجزات النعمة. إنه شعلة منتشلة من النار. لكننا نستدرك سريعاً فنقول: بل إن كل إيمان بالمسيح في أي زمان وأي مكان هو معجزة، فالإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأن ذلك بالنسبة له جهالة. أفليس عجيباً أن لصّاً مرائياً عاش مع المسيح ثلاث سنين ونصف خنق نفسه في ذلك اليوم وذهب إلى مكانه، لكن لصاً آخر رتبت النعمة أن يلتقي الربَّ في آخِر لحظات عمره فخلّصه المسيح، ومضى في ذلك اليوم نفسه ليكون معه في الفردوس؟!

إنك إذا رأيت شخصاً معادياً لله يعيش لذاته ولذّاته فهو شخص طبيعي، وهو الذي عمل نفسه هكذا. أما إذا رأيت مؤمناً حقيقياً بالمسيح، يملأ خوف الله قلبه، فهذا بكل يقين ثمرة النعمة المُخلِّصة، كقول الكتاب: «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه. الذين وُلِدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله» (يو ١: ١٢، ١٣).

لكن ليس فقط من جانب المسيح، بل أيضاً من جانب اللص كانت الظروف أسوأ ما تكون. فقد كان اللص في آلام رهيبة، هي آلام الصليب، فهل هذا وقت مناسب للإيمان؟ على أن هذا – ويا للعجب – هو ما كان! لذلك إن وصلت هذه الكلمات إلى شخص على سرير المرض أو حتى فراش الموت، فإنّ الذي خلّص اللص وسط آلامه الرهيبة قادر أن يُخلّصك أنت أيضاً.

خلص وهو على حافة الموت!

نحن لا نعرف على وجه التحديد ما الذي أثَّر في هذا اللص وأحدث فيه هذا التغيير العجيب؟ ألأن المسيح في أثناء عملية الصلب الأليمة لم يُبدِ أيّ احتجاج ولم يصدر عنه صراخ صياح أو استنكار؟ أم أن صلاة المسيح لأجل قاتليه طالباً الغفران لصالبيه قد أثّرت فيه؟ نعم، نحن لا نعرف على وجه التحديد هل كان ذلك أو غيره، فالرب عندما أراد أن يشرح كيفية حدوث التغيير في قلب الإنسان قال «الريح تهُب حيث تشاء، وتسمع صوتها، لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كل مَنْ وُلِدَ من الروح» (يو٣:٨).

نعم، إن عمل الله هو وحده الذي ظهر هنا، فلا عمل من جانب البشر ظهر في خلاص ذلك اللص. لقد قال يونان، وهو في بطن الحوت: «للرب الخلاص» (يون٢:٩). نعم، فمَنْ كان بوسعه أن يُخلِّص يونان من بطن الحوت سوى الرب؟ ومَنْ بوسعه أن يخلِّص أي خاطئ من خطاياه سوى الرب؟ لذا فقد قصد الله أن يخلص هذا اللص التائب في أسوإ الظروف من الناحية الإنسانية، حتى لا يفتكر واحد أنّ للإنسان دخلاً في خلاص أي إنسان. دعنا إذاً لا نركِّز على الوسائل المستخدمة في التبشير، فلقد استحسن الله أن يخلِّص المؤمنين بجهالة (أي ببساطة) الكرازة. إن الخلاص ليس هو عمل الإنسان الذي يمكنك أن تفهمه وتتبعه، بل هو عمل روح اللّه الذي يفوق العقل والتصور.

إن هذه الحادثة العجيبة التي نتأملها الآن تفتح أمامنا الفرصة لأن نقدِّم بشارة الإنجيل لأي شخص، ولو كان على حافة الموت. وكم نشكر الله لأن إنجيل الله، هذا الإنجيل الذي تأسس على موت المسيح لأجلنا، قدَّم الخلاص المجاني للص الجاني، وهو على حافة الأبدية؛ وهو قَبِلَه فعلاً. لا تستكثر

خطاياك إذاً على نعمة الله أيها القارئ العزيز. ومهما كانت تلك الخطايا، مهما ارتفعت جبالاً فوق التصور والخيال فإنه «حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً» (رو٥: ٢٠)، «ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية» (١يو١: ٧).

إن ذلك اللص لم يكن له أي رصيد من الأعمال الصالحة قبل توبته، ولا بعدها. فهو مجرمٌ عاتٍ، لا خاطئ عاديّ. لقد كسر القوانين البشرية، وروّع الناس بأعماله الإجرامية، وسفك الدماء الزكية، فاستحق عدلاً تلك الميتة البشعة. لقد كان الحكم بالصلب حكماً عادلاً باعترافه هو. نعم، لم يكن لهذا اللص غير التوبة والإيمان، لا أكثر ولا أقل. إنَّ كلمات المسيح العجيبة التي قالها في حياته «مَنْ يُقبِل إليَّ لا أخرجه خارجاً» (يو٦: ٣٧)، هذه الكلمات قد وُضِعَت هنا تحت الامتحان في هذه الحادثة، فتبيَّن أنها ذهب خالص، وفضة ممحوصة سبع مرات (مز١٢: ٦).

> **هذه الحادثة العجيبة تدعونا لأن نقدِّم بشارة الإنجيل لأي شخص، ولو كان على حافة الموت. فإن إنجيل الله، هذا الذي تأسَّس على موت المسيح لأجلنا، قدَّم الخلاص المجاني للص الجاني، وهو على حافة الأبدية، وهو قَبِلَه.**

والآن هل أسمع واحداً يقول: "لقد عشت عمري كله في الخطايا والآثام، فكيف يقبلني المسيح وأنا في هذه الحالة ؟" عزيزي، إنَّ هذه الحادثة العجيبة تفتح أمامك باب الرجاء. اركن تماماً إلى وعد المسيح «مَنْ يُقبِل إليَّ لا أخرجه خارجاً». حتى لو كنتَ قد عشت حتى هذه اللحظة حياة خالية من أي صور التقوى ومظاهرها، فإنك إن آمنت الآن أن يسوع هو ابن الله الذي أتى إلى العالم ليخلص الخطاة، ليخلِّصَك أنت، وإن اعترفت بخطاياك له، ووضعت كل ثقتك فيه، فإنه سيُخلِّصك فوراً.

نحن نؤمن أنْ في لحظة واحدة يمكن أن تُغفَر جميع الشرور والخطايا التي ارتكبتها في عمرك الفائت كله، والطبيعة القديمة التي صارت متمكنة في نفسك ممكن أن تتلقى ضربتها القاضية في اللحظة ذاتها التي فيها تتحول إلى المسيح بالإيمان.

لقد كان ذلك اللص يقدر أن يقول بحق «إنما كخطوة بيني وبين الموت». وهل الشخص الذي ينتظر الموت، بل الذي يموت فعلاً، بوسعه أن يخلُص أبدياً؟ نعم، لقد خلَّصه المسيح، وهو مستعد أن يفعل الشيء نفسه معك أنت أيضاً. لقد قيل عن الرب في إنجيل لوقا «هذا يقبل خطاة» (لو١٥: ٢)، وها المسيح، في الإنجيل ذاته، يقبل ذلك اللص الأثيم. فما الذي يمنعك أنت أن تخلص؟

لكن قد يقول قائل: قد خلص هذا اللص في آخر لحظة، ولهذا سأؤجِّل خلاصي أنا أيضاً إلى ما قبل الموت بساعات. لكني أقول لمثل هذا الشخص: لا تُحزن قلب المسيح الودود بمثل هذه الأفكار الشيطانية، ولا تُحزن روح الله القدوس، الذي يجاهد معك، بمثل هذه الأقوال. ثم أيضاً لا تُقامر بحياتك، فهل تضمن أنت متى وأين وكيف ستكون ساعتك الأخيرة؟ لماذا لا تستعد الآن؟ ولماذا تترك أهم أمر في حياتك إلى آخر لحظة؟ إنك بكل يقين أقرب إلى الأبدية مما تظن. ثم لماذا تقسّي قلبك؟ فأنت عندما تسمع صوت النعمة وتؤجل، تقسّي قلبك بنفسك. فعلى الجانب الآخر من صليب المسيح نرى صورة رهيبة من قساوة القلب ممثَّلة في اللص الهالك. فهو في الحديد ولا يلين! في أتون النار وقلبه لا يذوب! على بعد أشبار من المخلص ويموت مجدِّفاً وبلا رجاء! ويقول سليمان الحكيم: «الكثير التوبيخ المُقسّي عنقه، بغتة يُكسر ولا شفاء» (أم٢٩: ١).

قيل إن لصاً واحداً قد خلص من فوق الصليب في آخر لحظات عمره حتى لا ييأس أي إنسان مهما كان وضعه، لكن واحداً فقط هو الذي خلص فيما الآخر

هلك، حتى لا يؤجل أحد أمر خلاصه إذ قد تضيع منه الفرصة إلى الأبد.

كيف خلص اللص؟

لقد رأينا أن هذا اللص، حتى بعد ما صُلِبَ، كان يُعيِّر الرب، كزميله تماماً، لكن بعد ذلك حدث التغيير العجيب في قلبه، إذ تاب وآمن فخلص، والرب قبله هكذا سريعاً. فليست أيام السجن هي التي قادته للتوبة، ثم جاءت اللحظة التي خلُص فيها وهو على الصليب، بل بسرعة انتقل من الظلمة إلى النور، ومن الموت إلى الحياة.

وما الذي قاله هذا اللص التائب للمسيح؟ لقد قال له: «اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك». ونحن لا ندري عن يقين من أين عرف ذلك اللص مسألة مُلك المسيح: هل هي تلك اللافتة التي وضعها بيلاطس كعنوان علته فوق رأسه على الصليب كنوع من التهكم؟ ربما يكون ذلك كذلك، فنحن نعرف أنه حتى غضب الإنسان يحمد الله، كما يقول المرنم في المزمور ٧٦: ١٠. والله قادر أن يرسل سهماً مستقيماً بقوس معوجة. وروح الله يقدر أن يستخدم أي شيء ليقود النفوس للخلاص. والواقع إننا نعجب كثيراً بمشهدين تجلت فيهما بصيرة الإيمان النافذة بصورة تدعو للعجب. المشهد الأول عندما أتى المجوس من المشرق ليسجدوا للملك العظيم المولود، لكنهم لم يروا طفلاً تحوطه هالات المجد الأرضي ويقيم في قصر عظيم، بل رأوا مولوداً متواضعاً في حضن امرأة بسيطة، في مكان بسيط. لكن إيمانهم اخترق حجاب الاتضاع ورأوا عظمة شخصه، فخرّوا وسجدوا له، وقدّموا له هداياهم: ذهباً ولباناً ومُرّاً. وأما المشهد الثاني فهو مشهد اللص التائب فوق الصليب، والإيمان هنا أروع وأعجب، فهو لم يرَ مجرد طفل تحمله الأيدي، بل رأى شخصاً مرفوضاً معلّقاً على صليب العار. لكن اللص

رأى في ذلك المصلوب مسيح الله والملك الآتي عن قريب في ملكوته*.

ثم تأمل في كلمات اللص التائب من زاوية أخرى. لقد قال له «اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك»، وهي كلمات جمعت بين البساطة والتواضع. فهو لم يقل له "أكرمني"، كما طلب شاول الملك من صموئيل (١صم١٥: ٣٠)، ولا قال له أيضاً: "اغفر لي خطاياي وسامحني بأفعالي وارحمني". بل كل ما جرؤ على التطلع إليه هو أنه عندما يأتي الرب يسوع في ملكوته فليذكره. لقد قال «اذكرني»: وهو تعبير يشتمل على كل ما سبق، لكنه يشتمل في المقام الأول على ثقة بالمخلِّص. إنه لا يطلب أكثر من أن يذكره المسيح، ويترك للمسيح اختيار الأسلوب الذي يذكره به. نعم، لقد وثق به تماماً وركن إليه.

عندما سأل هيرودس الملك المسيحَ لم يُجِبه بشيء، ولا أجاب بيلاطس. بل بعدما عُلِّق على الصليب أيضاً، لم يرُدّ على تعيير رؤساء الكهنة ولا تجديف المجتازين. لكنه أجاب نداء ذلك اللص، وصرخة ذلك الخاطئ المستغيث.

ونحن نعرف أن المسيح، في صباح ذلك اليوم، عندما سأله هيرودس الملك بكلام كثير لم يُجِبه بشيء، ولما سأله بيلاطس لم يُجِبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جداً. بل بعدما عُلِّق على الصليب أيضاً، عندما عيَّره رؤساء الكهنة وجدَّف عليه المجتازون لم يرُدّ على تعييرهم وتجديفهم. لكنه أجاب نداء ذلك اللص، وصرخة ذلك الخاطئ المستغيث. لقد وصل نداء ذلك اللص في الحال إلى أذن المسيح وإلى قلبه، فقال له الرب «الحق أقول لك: إنك

* لقد كانت كلمات ذلك اللص للمسيح تمثل كلمات الاحترام الوحيدة التي وصلت آذان الرب بعد ساعات طويلة فيها سمع المسيح من كلمات الهزء والتعيير والشتيمة ما يجل عن الحصر.

اليوم تكون معي في الفردوس».

في مشـــهدِ الشــرِّ الــذي بــالظُلمِ ضــجَّ وأرعَـــدَ
ورئيسُ هذا العــالمِ الـــــشــريرَ هــاجَ وعربَـــدا
سطعَ ضياءُ الحــبِ يُثـــلِجُ في الصدورِ الأفئـــدةْ
فاللصُ نـــالَ العفــوَ حَــالاً حينمــا قَبِـــلَ الفِـــدا
قالَ لـــهُ: اذكُرْنـــي متــى جئــتَ بمُلكِــكَ ســيِّداً
فأجابــه: اليـــومَ تكـــون معـــي وتبقــى للمـــدى

هذا كله حدث يوم ضعف المسيح، فالكتاب المقدس يقول إنه «صُلِــبَ مــن ضعف» (٢كو١٣: ٤). فإذا كانت صرخة شرير مستغيث استجابها الرب بمثــل هذه السرعة في يوم ضعفه، فهل تظن أنه يتوانى في الخـــلاص اليــوم؟ أو أن شخصاً يستغيث به وتضيع صرخته هباء؟ إذا كان المخلِّص المـــائت قــدر أن يخلص فكم بالأحرى المخلص المُقام، الذي انتصر على الموت، والـــذي ارتفــع إلى المجد؟ إذا كان وهو على الصليب قد تجاوب مع نداء خاطئ تائب، وفتـــح أمامه باب الفردوس، فماذا وهو الآن على العرش؟ إذا كان، وهو مُجــرَّد مــن كل شيء، ردَّ على اللص هذا الرد العجيب، فماذا يكون وقــد دُفِــع إليــه كــلُّ سلطان في السماء وعلى الأرض؟

لقد أظهر المسيح في هذا اللص معرضاً، لا لنعمته فقط، بل لقوّتــه أيضــاً، في اليوم نفسه الذي فيه كانت قوته محجوبة خلف الغيوم، وذلك عندما قــال لــه «الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس». أيوجد أعجب من هـــذا الانتقال السريع من دائرة الغضب إلى دائرة النعمة، ثم إلى دائرة المجد؟! لقـــد أقام الله ذلك اللص التائب ليكون معلِّماً للإيمان والتوبة، للبســـاطة والشـــجاعة،

للثقة والرجاء. فهل نستحي أن نتعلم من شخص نظير ذلك اللص؟ أما الدرس الذي نتعلمه منه، فهو أن النظرة بالإيمان إلى المخلص المصلوب كافية للخلاص. هذا هو مجد النعمة.

سبعة دروس من أعتى اللصوص

أريد الآن - بنعمة الرب - أن أشير إلى عمل الله في هذا اللص التائب، وهو عمل سُباعي كالآتي: الانفصال، المخافة، التوبة، البصيرة، الإيمان، الشجاعة، الصلاة.

١- **الانفصال:** وهو ما أشار إليه الرسول بطرس بالقول «تقديس الروح للطاعة» (١بط١: ٢). فالروح القدس يفرز الشخص ويفصله عن كل البشر ليتصرف، لا كما يتصرف الآخَرون، بل كما يوجهّه ويعلّمه روح الله. وهذا ما نراه هنا في هذا اللص. فلقد توقف عن تعيير المسيح كما كان يفعل هو في البداية، وكما استمر يفعله الآخرون حتى النهاية. والواقع أنه أسهل جداً أن يسبح الشخص مع التيار، ومن العسير أن يصارع ضده. وفي مشهد الصليب كان كل الناس ضد الرب يسوع، لكن ذلك اللص وقف في الساحة بمفرده، وقف وحده ضد كل العالم.

٢- **مخافة الله:** بمجرد أن فصله روح الله عن البشر المحيطين فقد قال لزميله: «أوَلا أنت تخاف الله؟». ما أعجب أن نرى ثمر التقوى في قلب شخص كهذا اللص، الذي، طوال عمره، لم يعمل حساباً لله قط. إننا في هذا اللص نرى ليس الخوف من الله، الذي هو إحدى ثمرات الخطية، بل خوف الله وهو ثمرة من ثمار عمل الله في النفس، بل هو رأس الحكمة (مز١١١: ١٠). ومن فوق ذلك الصليب تحققت كلمات الجامعة «قد عرفت

أن كل ما يعمله الله أنه يكون إلى الأبد.. وأن الله عمله حتى يخافوا أمامه» (جا٣:١٤). ونتيجةً لثمر التقوى ومخافة الله في قلبه، فإنه توقف عن الاشتراك في أعمال الظلمة غير المثمرة وبدأ يوبخها (أف٥: ١١).

٣- **التوبة:** إذ قال لزميله «أولا أنت تخاف الله، إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟ أما نحن، فبعدل، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا». لقد دان هذا اللص الشر في نفسه عندما قال «**نحن**... ننال استحقاق ما فعلنا». أي أنه أقرَّ باستحقاقه لموت الصليب، بعكس زميله الذي قال للمسيح «إنْ كنتَ أنت المسيح فخلِّص نفسك وإيّانا!». والتوبة اللازمة للخلاص تعني تغيير الفكر بالنسبة للخطية. إنها الحزن على الخطية وكراهيتها وتركها. لكنها – كما نرى في هذا اللص– أعمق من ذلك أيضاً، فهي تتضمن اكتشاف عمق خرابنا وفسادنا التام وعدم استحقاقنا لشيء. إنها ليست فقط الحكم على الخطية، بل أيضاً الحكم على النفس نتيجة الضمير الذي تيقَّظ بفعل روح الله.

٤- **البصيرة:** إذ قال عن المسيح لزميله «أما هذا، فلم يفعل شيئاً ليس في محله». لقد عرف ذلك اللص المسكين أفضل مما عرف رؤساء الكهنة وقادة الأمة. ففي نظر الكتبة والفريسيين لم يعمل المسيح شيئاً في محله، لكنه في نظر ذلك اللص الذي جلى الله بصيرته «لم يفعل شيئاً ليس في محله». ما أجلى البصيرة التي جعلته يلاحظ الفارق الكبير بينهما (هو وزميله) وبين المسيح ولو وضعوه في الوسط، كما جعلته يرى في يسوع، مسيح الله ومُخلِّص الخطاة، والذي إن كان قد أخذ فوق الصليب مكان الدينونة فقد أخذه بالنعمة فقط.

٥- **الإيمان:** ويعلِّمنا الكتاب المقدس أنَّ الخلاص هو بالتوبة وبالإيمان. ولقد أظهر ذلك اللص توبته في كلماته لزميله، كما أظهر الإيمان في كلماته

للمسيح إذ قال له: «اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك». فذلك اللص لم يتحول من معيِّر للمسيح إلى شخص يرثي له كما فعلت بنات أورشليم (لو٢٣: ٢٧،٢٨)، ولا حتى ليظهر له الرحمة، بل إنه إذ أحس بعظمته فقد طلب منه الرحمة! والإيمان الذي يخلِّص ليس إيماناً عقائدياً أو معرفة بحقائق تاريخية. إنه ليس الاقتناع بشخص المسيح أو الإعجاب به. بل هو في المقام الأول الإركان الكليِّ إلى المسيح بالنسبة للحاضر والأبدية. صحيح إنَّ الإيمان الذي يخلِّص يتضمن معرفة الحق الخاص بالمسيح كما يعلنه الكتاب المقدس، لكنه يتضمن أيضاً حالة القلب في موقفه من ذلك الشخص المجيد.

هذا اللص يوبِّخ مؤمني اليوم الذين يَخجلونَ من المجاهرة بالمسيح وسط عالمٍ معادٍ له. ألا نخجل كلنا من قوة شهادة ذلك اللص يوم أن كان المسيح مصلوباً بالمقابلة مع شهادتنا الباهتة الضعيفة، مع أن المسيح اليوم ممَجَّد في السماء؟!

٦- **الشجاعة:** ما أعظم شجاعة ذلك اللص إذ يعترف بالمسيح ملكاً وباراً وربّاً. فعندما تداعى إيمان الرسل تشامخ إيمان ذلك البطل. لقد قدَّم في إيمانه فضيلةً (٢بط١:٥). ولا شك أن هذا اللص يُخجِل عشرات الآلاف من المؤمنين اليوم الذين يَخجلون من المجاهرة بالمسيح وسط عالَمٍ معادٍ له، ناكرٍ لصليبه، وناكرٍ لربوبيته. نعم، ألا نخجل كلنا من قوة شهادة ذلك اللص يوم أن كان المسيح على الصليب بالمقابلة مع شهادتنا الباهتة الضعيفة، مع أن المسيح اليوم مُمَجَّد في السماء، وجالس عن يمين الله وقد دُفِع إليه «كلُّ سلطان في السماء وعلى الأرض»؟

٧- **الصلاة:** هذا الخاطئ العاتي ربما لم يُصلِّ لله في كل حياته. أما وقد عمل فيه روح الله فها نحن نسمعه يصلي إلى الرب «اذكرني يا رب متى جئت

في ملكوتك». ومع أن الفارق، بحسب البشر، بين لص قاتل وفريسي هو شاول الطرسوسي، فارق هائل، إلا أنهما بعد الإيمان الحقيقي جمعهما شيء مشترك هو الصلاة. وما كان أحلى صرخة هذا الوليد الجديد وهو في مهده العجيب (الصليب) في أذني ذلك المصلوب إلى جواره، والذي قال بعد ذلك عن شاول الطرسوسي «هوذا يصلي» (أع٩: ١١).

إيمان عجيب

أشرنا إلى أن إيمان ذلك اللص الذي تاب وهو مُعلَّق على الصليب إلى جوار الرب يسوع هو إيمان عجيب، ربما لم يرتق إيمان منذ بدء الخليقة نظيره. ويشتمل هذا الإيمان العجيب على سبعة أمور مجيدة كالآتي:

أولاً: لقد آمن ذلك اللص بالخلود، وبأنْ هناك بعد الموت وجود. وإلا فما الداعي لأن يدعو زميله إلى خوف الله؟ ما فائدة خوف الله لشخص سيودِّع الحياة بعد ساعات، إذا كان الموت هو نهاية كل شيء؟ وإذ تضمَّن إيمان ذلك اللص هذا العنصر، فإنه لم يطلب الخلاص من آلامه الجسدية الحالية، بل طلب أن يذكره المسيح في يوم مُقبِل.

ثانياً: آمن اللص أيضاً برحمة الله العجيبة، ولهذا فقد اعترف وأقرَّ بذنبه العظيم. عند البشر، يعتبر الاعتراف هو سيد الأدلة، فيحاول الجاني قدر استطاعته أن يتجنب الاعتراف. أما عند الله فالإقرار بالذنب هو خطوة لا بد منها للحصول على الغفران، وذلك لأن البديل الكريم دفع الحساب عن كل تائب مؤمن. قال الحكيم «مَنْ يكتم خطاياه لا ينجح، ومَن يقرُّ بها ويتركها يُرحَم» (أم٢٨: ١٣).

ثالثاً: أقرَّ ذلك اللص ببر المسيح وبكمال ناسوته الفريد. والجو الذي تم فيه ذلك الإقرار لافت للنظر، فعندما تداعى إيمان الرسل تشامخ إيمان اللص!

وعندما أجمعت الأمة أن يسوع مستوجب الموت، أعلن ذلك البطل أن المسيح لم يفعل شيئاً ليس في محله!

رابعاً: اعترف اللص أيضاً بلاهوت المسيح وبربوبيته. لقد سمع تهكمات رؤساء الكهنة «إن كنتَ ابن الله فانزل عن الصليب» (مت٢٧: ٤٠)، والمسيح لم يرد على تعييرهم، ولم ينزل. لكن ذلك اللص بالإيمان – لا بما تراه الأعين – رأى اللاهوت في ذلك المصلوب الأوسط، فقال له «يا رب».

خامساً: اعترف اللص بأن يسوع هو المخلِّص، فقال له «اذكرني». دون أن يحدِّد له الطريقة التي بها يذكره، واثقاً في صلاح المسيح. وقديماً نسي رئيس السقاة يوسف عندما قال له: «اذكرني»، أما يوسف الحقيقي فلم ينسَ قط مسكيناً استغاث به!

سادساً: اعترف اللص بأن ذلك المصلوب إلى جواره هو الملك، كما عرف أيضاً أن له ملكوتاً. فمع أنه كان مُعلَّقاً على صليب العار، لا مُكلَّلاً بتيجان المُلك وأكاليل الفخار، ومع أنه كان مُعتَبراً كأنه واحد من الأثمة، لا مُحاطاً بحاشية من الوزراء، وتخدمه مجموعة من العبيد والخدم، فإنه رغم ذلك رأى فيه – بالإيمان – ملكَ اليهود.

سابعاً: آمن بمجيئه الثاني عندما قال له «اذكرني يا رب **متى جئت** في ملكوتك». فلقد عرف ذلك اللص أفضل من بعض دكاترة اللاهوت الذين لا يعرفون سوى ملكوت المسيح الروحي الحاضر. لقد تعلَّم من روح الله أن المسيح سيأتي ثانية ليؤسس ملكه. أو كما قال المسيح عن نفسه إنه «ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه مُلكاً ويرجع» (لو١٩: ١٢). وها ذلك اللص يقول للرب «اذكرني... متى جئتَ في ملكوتك*».

---

* ليس متى جئت لتملك، بل متى جئت في ملكوتك، أو متى جئت ملكاً (رؤ١٩: ١٦).

رد المسيح العجيب

كان هذا إيمان ذلك اللص. وما أروعه إيماناً! فبماذا أجابه الرب؟ أو بالأحرى ماذا كان تَجاوب النعمة الغنية مع هذا الإيمان العظيم؟ لقد كان التَّجاوب رائعاً كذلك، إذ قال له المسيح «الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس».

«الحق أقول لك» ...	**يا للتأكيد!**
«إنك اليوم» ...	**يا للسرعة!**
«تكون معي» ...	**يا للرفعة!**
«في الفردوس» ...	**يا للمجد!**

لقد أعطى الرب ذلك اللص التائب، نتيجة طلبته، أكثر جداً مما طلب أو افتكر (أف٣: ٢٠).

فلقد ترجَّى ذلك اللص الخير في يوم عتيد بعيد، لكن المسيح قال له: «اليوم»، بل إنه لحظة الرقاد هنا سيكون مع المسيح في المجد هناك.

ولقد طلب اللص نصيباً في ملكوتٍ أرضيٍّ، فأعطاه الرب نصيباً في فردوسٍ سماوي؛ ذلك المكان الرائع، حيث الجمال والسلام والمجد.

ولقد طلب اللص أن يذكره المسيح، فأجابه الرب بأنه لن يذكره فقط، بل سيكون معه، سيكون في رفقته.

قال أحدهم "إن واحداً من المصلوبين الثلاثة مات بلا رجاء، أما الآخران فقد أخذا موعد لقاء في السماء. وهذان الآخران أحدهما هو ابن الله، يسوع البار، والثاني هو لص أثيم من الفجار!"

تفنيد هرطقات

وكلمات المسيح هنا للّص تعتبر أول إعلان في الكتاب المقدس على أن أرواح القديسين تذهب فور الرقاد إلى وجود حقيقي وشعور كامل في جو البركة مع المسيح.

- لقد اخترع البعض هرطقة **رقاد النفس** التي بنوها على كلمات سليمان «الموتى لا يعلمون شيئاً» (جا٩:٥). وأولئك الذين يعلّمون بخرافة نوم النفس بعد الموت قرأوا هذه الآية هكذا "الحق أقول لك اليوم: إنك تكون معي في الفردوس". وهم بهذه القراءة المغلوطة لا يخدعون سوى نفوسهم وكل الذين في قلوبهم غرض وفي نفوسهم مرض. كلا بل إن الرقاد للأجساد، أما النفوس والأرواح فإنها تذهب في نفس اللحظة التي يحدث فيها الموت لتكون مع المسيح في الفردوس (في١: ٢٣،٢٤).
- وآخرون اخترعوا ما هو أشر، أعنى به **خرافة المطهر** الذي يُعذّب فيه المؤمنُ ليؤهّل للسماء. والواقع أنه لو كان هناك إنسان أحوج إلى المطهر من غيره لكان هو ذلك اللص. فكون اللص لم يذهب إلى هذا المطهر المزعوم، يدل على أن هذا الفكر هو محض خرافة من خرافات العقل البشري السخيف، تماماً مثل الخرافة السابقة. إن كلمات المسيح لهذا اللص هنا تنفي تماما هاتين الخرافتين.
- وهناك أيضاً فكر لدى البعض عن شيء اسمه **اللمبوس***. والكتاب

---

* هذا الفكر هو وليد قصة "دانتي" الذي يُعتبَر أشهر تلاميذ "توما الأكويني" (القرن الثالث عشر) حيث عبّر عنه في روايته "الكوميديا الإلهية"، والتي فيها شرح فكره عن السماء والجحيم والمطهر، وفيها قال إن اللمبوس هذا عبارة عن ظلال قاتمة بلا آلام شديدة، حيث تتصاعد أحزان بلا ألم. ولقد استمد هذا التعليم سلطته بمرسوم من البابا "أنوسنت الثالث" نحو عام ١٢٠٠م حيث قرر أن عقوبة الخطية الأصليه هي الحرمان من رؤية الله، أما عقوبة الخطايا الفعلية فهي عذاب النار الأبدية.

المقدس لا يكلمنا سوى عن الهاوية في العذاب لِمَن رفض خلاص المسيح المجاني، والفردوس لكل من قبله، حتى ولو كان مثل هذا اللص الجاني، الذي تاب وآمن في آخر لحظات عمره. نعم، فهذا اللص لا ذهب إلى المطهر ولا إلى اللمبوس، بل إلى الفردوس.

- والمسيح أيضاً لم **يذهب إلى الجحيم** من قِبَل الصليب، كما يُعلِّم البعض، بل إلى الفردوس، وقبيل موته قال لأبيه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي» (لو٢٣: ٤٦).

يا لروعة النعمة! فبينما الإنسان يطرد مسيح الله من الأرض قاتلاً إياه، فإن المسيح يقبل لصاً قاتلاً في فردوس الله. لقد كان عجيباً أن يغمض لعازر المسكين عينيه هنا على الأرض، وهو وسط الأوحال والمزبلة، ليجد نفسه في حضن إبراهيم، لكن أعجب منه أن يغمض ذلك القاتل عينيه فوق الصليب ليجد نفسه في فردوس الله!

يا لروعة النعمة! فبينما الإنسان يطرد مسيح الله من الأرض قاتلاً إياه، فإن المسيح يقبل لصاً قاتلاً في فردوس الله.

ولكم تعجب الملائكة في ذلك اليوم عندما شاهدوا اللص يدخل إلى الفردوس بعد المسيح مباشرة، وكأن المسيح قال لهم: "لا تغلقوا الباب، فورائي شخص قادم". وكم كانت دهشتهم إذ كان هذا الشخص لصاً ليس له أي رصيد من الأعمال الصالحة. وكأن المسيح يرد على دهشة الملائكة في ذلك اليوم بالقول: "هذا مجرد عينة لكثيرين سيأتون من بعده". نعم يا أخي العزيز، فهذا هو مجد النعمة. وما السماء إلا مكان لخطاة بحسب الطبيعة غسلهم دم المسيح، وطهَّر الإيمان قلوبَهم وضمائرهم. وهذا كله مُقدَّمٌ للجميع، لكل من يريد، بالنعمة المجانية وحدها.

«الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس» هذه هي السماء التـــي تنتظرنا يا أخي العزيز. فليست السماء مكاناً شوارعه ذهبية، وأبوابه لؤلؤيـــة، وأنواره لا تغيب. فمع أن هذا كله صحيح، لكنَّ السماء بغير المسيح لا تكـــون سماءً. إن السماء هي الوجود مع المسيح، وذاك أفضل جداً. إن جمال الســماء ومتعتها ليس أننا سنتخلص من متاعب الحياة وآلام الزمان الحــاضر، بــل أننــا سنتمتع بالمسيح ونكون معه بلا افتراق.

لهذا تألم المسيح لأجلنا خارج المحلة، ليضمن لنا مكاناً معه داخــل الحجــاب. ولهذا عُلِّق فوق صليب العار، كي ما نشاركه في بيت الآب إلى أبد الآبدين.

العبارة الرابعة من فوق الصليب

كلمات الهجر

ومن الساعة السادسة كانت ظلمة على كل الأرض إلى الساعة التاسعة. ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً:

إِيلِي، إِيلِي، لَمَا شَبَقْتَنِي؟

أي:

إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟

(مت ٢٧:٤٥، ٤٦)

تأملنا، في ما سبق، عبارات المسيح الثلاث الأولى من فوق الصليب، والتي نطق بها في ساعات النور. أما العبارة التي نتحدث عنها الآن فلقد نطق بها بعد ساعات الظلمة. لذا دعنا الآن أولاً ننشغل برسم الخلفية التي منها نطق ربنا الكريم بهذا النطق الخالد.

جو الجلجثة

الظلمة المعجزية: لقد سجّل العديد من المؤرخين حادثة الظلمة في أسفار أخبارهم. فمثلاً ذكر أوريجانوس، المعلِّم المسيحي المشهور، أنه اطَّلع على ما سجله الوثنيون بشأن هذه الحادثة. وترتوليان، في أواخر القرن الثاني الميلادي، قرر أن أعداء المسيحية أنفسهم سجلوها في بطون محفوظاتهم. ولكن بالنسبة للمؤمن يكفيه جداً أن الوحي سجلها، ولا يحتاج بعدها إلى دليل آخر، أو إلى شهادة أحد من الناس. ويهمنا أن نوضِّح أن هذه الظلمة لم تكن كسوفاً عاديّاً للشمس، لأن المسيح صُلِبَ في يوم عيد الفصح اليهودي، وهو اليوم الرابع عشر من الشهر القمري، أي عندما يكون القمر بدراً، أي في مواجهة الشمس، مما يستحيل معه، وهو في هذا الوضع، حدوث الكسوف. ثم إن الكسوف الذي نعرفه، متى حدث، لا يزيد عن دقائق معدودة.

هذه الظلمة – إذاً – هي واحدة من الآيات التي صاحبت الصليب. وذاك الذي ارتبط ميلاده بظاهرة فلكية عجيبة (مت٢:٢،٩،١٠)، ارتبط موته كذلك – كما نقرأ الآن – بظاهرة فلكية أخرى عجيبة! فهل هو قليل أن الخالق العظيم لكل شيء يُولَد كباقي البشر، ويوضع في مذود حقير كأنه أقل من البشر؟! ثم أليس أعجب أن يموت في النهاية معلقاً فوق صليب، ثم يوضع بعد ذلك في قبرٍ موحشٍ كئيب؟!

إننا نتذكر أنه في الليلة التي وُلِد فيها المسيح أتى ملاك الرب إلى رعاة يحرسون غنمهم على روابي بيت لحم، ويقول لنا البشير لوقا إن مجد الرب أضاء في ليل الرعاة (لو٢:٨،٩). وهنا نقرأ، في يوم موته، عن ظلمة تغطي الأرض في منتصف النهار. نعم، فهو عظيم وابن العلي يُدعَى، ولذلك ففي مولده تحول الليل نهاراً، وفي موته استحال الضياء ظلاماً!

إن الظلمة التي حدثت في الجلجثة هي حقاً ظلمة معجزية. فإن كان النور عادة هو الذي يطرد الظلمة، فإن تلك الظلمة هي التي غيَّبت نور الشمس في الظهيرة. ويا له من معنى خطير، ويا لرهبة قدرة الله القدير! ومن نصوص الكتاب نفهم أن هذه الظلمة لم تحدث تدريجياً، ولا تلاشت تدريجياً، بل إنها خيَّمت دفعة واحدة في البداية، ثم انقشعت دفعة واحدة في النهاية. حتى إننا نستطيع أن نقول إنه كان لها معنىً رمزيّ يرتبط بآلام الصليب خلال ساعات الظلام، وبصرخة المتألم القدوس في ختام تلك الساعات.

الصمت المطبق: سبقت هذه الظلمة ثلاث ساعات كان المسيح فيها معلقاً فوق الصليب، وفيها تكلم المسيح بعباراته الثلاث الأولى التي تأملناها في ما سبق. وفيها، بعد أن قسم العسكر ثياب المصلوب واقترعوا على قميصه، راحوا يسخرون منه. وفيها رؤساء الكهنة والكتبة، بعد أن اعترضوا على العنوان الذي كتبه بيلاطس فوق صليب يسوع، راحوا يتهكمون عليه ويتحدّونه

أن ينزل من على الصليب. كما أنه بعد تلك الساعات الثلاث دبَّت الحركة في المشهد من جديد، فتكلَّم يسوع، كما أخذ جمهور المتفرجين يروحون ويغدون. أمَّا في الساعات الثلاث فلا نرى سوى الظلمة، ولا نسمع سوى الصمت. لقد استولت على الجميع حيرة من شعور غامض بالخوف مُركَّز في الصليب والمصلوب. ويسجل البشيرون أن قائد المئة الروماني لما رأى ما كان «مَجَّد الله قائلاً: بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً ... حقاً كان هذا ابن الله» (لو٢٣:٤٧؛ مت٢٧:٥٤).

* * * *

لقد اعتبر بعضهم تلك الظلمة التي غطت الجلجثة أنها كانت تعبيراً عن حزن الخليقة على موت خالقها فاتشحت بالسواد. ومع أن هذا التعبير جميل، فإنني أعتقد أن المعنى أعمق من هذا. فالأرجح أن الظلمة حدثت لأن الله الديان في ذلك الوقت كان يتعامل بالعدل مع ربنا يسوع المسيح، الذي قَبِل أن يأخذ مكاننا ويحمل دينونتنا. وهذا التعامل بين الله والمسيح ليس لمخلوق - كائناً من كان - أن يتجاسر ليدخل أو يحاول أن يعرف ما دار فيه. لذلك لفَّ الكونَ ظلامٌ، وأطبق على الجميع سكونٌ. فنحن لا نسمع طوال ثلاث ساعات كاملة كلمة لأحد، إلى أن قطع المسيح هذا السكون بالصرخة التي ستكون موضوع تأملنا الآن.

وإزاء هذا الصمت المطبق، وأمام هذا الظلام، كيف يمكننا أن نفهم ما كان يجري في تلك الساعات الرهيبة؟ على أنه إن كانت قصة الأناجيل لا تعطينا وصفاً لما حدث، فلنتحول إلى أقوال الأنبياء وكلمات المزامير التي تصف لنا مشاعر المسيح في ذلك الوقت. ثم لنستمع إلى صرخته في نهاية ساعات الظلمة «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» لنفهم ما حدث فيها، ونجتلي بذلك القليل من أسرار الفداء.

أحزان الجلجثة

هل تتذكر بستان جثسيماني؟ لماذا كانت نفس المسيح حزينة جداً في البستان؟ لماذا كان في جهاد وكان يصلي بأشد لجاجة؟ لماذا أرسل الله ملاكاً من السماء ليقوّيه؟ السبب أنّه هناك شاهد السحب السوداء الكثيفة التي كانت ستصُبُّ غمارها على رأسه القدوس في الصليب. فماذا نتوقع أن يكون حاله عندما وصل إلى الصليب؟ إنه هنا في الجلجثة شرب الكأس الرهيبة التي فزعت نفسه عندما تأمل محتوياتها في البستان.

ويمكننا تقسيم آلام الجلجثة وأحزانها إلى عناصر ثلاثة:

مياه غامرة، نيران آكلة، ظلمة دامسة.

١- **مياه غامرة:** استمع إليه يقول - بحسب المزمور ٤٢ «غَمرٌ ينادي غمراً عند صوت ميازيبك. كل تياراتك ولججك طمت عليَّ». قديماً جاء الطوفان على العالم بسبب شر الانسان، وتعاظمت المياه جداً، وغطَّت جميع الجبال الشامخة. لكنها على أية حال كانت مياهاً عادية، أما بالنسبة للمسيح على الصليب فلم تكن مياهاً عادية. يقول في المزمور ٦٩ «خلِّصني يا الله، لأن المياه قد دخلت إلى نفسي. غرقتُ في حمأة عميقة، وليس مقر. دخلت إلى أعماق المياه، والسيل غمرني... نَجِّني من الطين فلا أغرق». وهذا كله تصوير لحماقاتنا وذنوبنا التي وُضِعَت على المسيح. لقد أحاطته الخطية من كل جانب وغطته بالتمام، وهو الذي لم يعرف خطية!

٢- **نيران آكلة:** في سفر مراثي إرميا يقول المسيح بروح النبوة «أمَا إليكم يا جميع عابري الطريق؟ تطلَّعُوا وانظروا إنْ كان حزن مثل حزني

الذي صُنِعَ بي، الذي أذلني به الرب يوم حُمُوِّ غضبه؟ من العلاء أرسل ناراً إلى عظامي، فسَرَت فيها». إن تلك النيران التي اشتعلت في مخلِّصنا في ساعات الظلمة كانت أشد هولاً من نيران الأتون المحمى سبعة أضعاف في بابل (دا ٣). هل تتذكر ماذا فعل الله بسدوم وعمورة؟ كيف أمطر الله عليهما ناراً وكبريتاً، فأحرقهما (تك١٩)؟ لكنَّ كراهية الله ضد الخطية لم تُرَ بصورة أكثر هولاً مما نراه في صليب المسيح.

على مدى أربعة آلاف سنة قبْل المسيح، كانت النيران تأكل الذبائح التي تُقدَّم لله. لكن لم توجد ذبيحة قَدِرت أن تُنهي تلك النيران، بل إن النيران الإلهية هي التي أتت على جميع الذبائح، ولم تنطفئ النار بعد. ذلك لأن كل تلك الذبائح الحيوانية كانت محدودة، ولا تقدر أن توفي الله غير المحدود حقوقه. حتى أتى المسيح، الذبيح العظيم، والفادي الوحيد، حمل الله الكريم، هو وحده أمكنه أن يحتمل كل تلك النيران وينهيها تماماً بالنسبة لنا.

يا للعجب! حمل الله خارج المحلة! محبوب الآب في مكان المطرودين من محضر الله! القدوس البار مثله مثل البرص، بعيداً عن مقادس الله!

إن الحيوانات التي كان يُدخَل بدمها إلى الأقداس للتكفير، كانت تُحرَق أجسامها خارج المحلة. وها المسيح هنا يقوم بعمل الكفارة العجيب، وها جسده يُصلَى بنار اللهيب.

يا للعجب! حمل الله خارج المحلة! محبوب الآب في مكان المطرودين من محضر الله! القدوس البار مثله مثل البرَّص، بعيداً عن مقادس الله! وآه من نيران الجلجثة التي اشتعلت في المسيح في ساعات الظلمة الثلاث، إنها نيران جهنم مُركَّزة، قاساها حمل الله لأجلنا هناك!

٣- **ظلمة دامسة:** أمر ثالث تحمّله المسيح في ساعات الصلب هذه. اسمعه يقول، بحسب مزمور ٨٨ «وضعتني في الجب الأسفل، في ظلمات، في أعماقٍ. عليَّ استقرَّ غضبك وبكل تياراتك ذللتني». وما هذه الظلمة إلا تعبير عن الخطية. أو هي تعبير عن قسوة الموت الذي قاساه ربنا يسوع المسيح. كانت الظلمة شهادة لآلام المسيح غير الظاهرة في موته الكفاري؛ تلك الآلام التي كانت توقعها يد غير منظورة، هي يد العدل الإلهيّ على من جُعِلَ خطيةً، وحمل في جسده خطايانا على الخشبة.

وما أرهب تلك العبارة «عليَّ استقرَّ غضبك». يتساءل ناحوم النبي قائلاً: «مَن يقف أمام سخطه؟ ومن يقوم في حُمُوِّ غضبه؟» (نا ١:٦). والإجابة الواضحة أنه لا يوجد إنسان يقدر أن يقف أمام سخط الله، وأن يقوم في حموِّ غضبه. نعم، لا يوجد سوى المسيح الذي قدر أن يحتمل ذلك الغضب الرهيب جداً. احتمله - تبارك اسمه - في ساعات الظلمة هذه.

* * * *

قارئي العزيز: هل بان غضب الله على العالم القديم عندما فاض عليه الماء فهلك؟ وهل تجلَّى ذلك الغضب عندما رمَّد مدينتي سدوم وعمورة، وجعلهما عبرة مكابدة عقاب نار أبدية؟ وهل ظَهَر أيضاً عندما صنع بفرعون وبالمصريين أحكاماً؟ وعندما كان الظلام الدامس على أرض مصر لمدة ثلاثة أيام؟ وهل نستشعر سخطه الشديد عندما أقسم ألا يدخل الشعب غير المؤمن إلى أرض الميعاد، بل طرح جثثهم في القفر؟ نعم، لكن غضب الله ضد الخطية لا نجده في أي وقت أو أي مكان مثلما نراه في الجلجثة، عندما كان ابن الله معلَّقا على الصليب، تغمره الأوحال، وتتخلله النيران، ويلفه الظلام، متروكاً من الله!

منفرداً فوقَ الصليبِ قد تُركـتْ ولم تَجِدْ حولكَ عَيناً أشــفقَتْ
والآن عن يمينِ اللهِ قد رُفعـتْ تُرددُ السماءُ مدحَ مــا فَعَلْـتْ

فــهل هُنــاكَ اللهُ قــد تركَـكَ وعن صراخِكَ بعيداً قد غَــدا
فالآنَ في الوجهِ الذي قد أُفسِـدَ نقــراُ مَجــدَ اللهِ فائقــاً بَــدا

هوذا الإنسان، رجل الأحزان

لقد تألم المسيح في كل حياته، فكان بحق رجل الأوجاع. في طفولته تــألم من الإنسان ممثَّلاً في هيرودس، قاتل صبيان بيت لحم، فاضطر أن يــهرب بــه يوسف وأمه إلى مصر. وفي بداية خدمته تألم من الشيطان عندما اقتاده الـروح إلى البرية ليُجرَّب أربعين يوماً من إبليس. أمَّا فــي ســاعات الظلمــة، فــي الجلجثة، فنرى شيئاً مختلفاً تماماً: أنه كان يتألم من الله الديان. وما أشــد تلـك الآلام! إنها أشد بما لا يقاس من كل الآلام الجسدية، وأقسى بكثــير مــن كـل الآلام النفسية. فالمسيح احتمل الآلام الجسدية الرهيبة ولم يفتــح فــاه، وعــانى الآلام النفسية القاسية دون أن ينبس ببنت شفة، أما أمام الآلام الكفاريــة، وأمــام حموّ غضب إله السماء الذي انصبَّ عليه، فقد صرخ صرختـه المُــرَّة «إلــهي، إلهي لماذا تركتني؟»

لقد تميَّز مشهد الجلجثة في الثلاث ساعات الأولى من الصليب بظلمة أدبيــة وروحية من الناس الأشرار الذين كانوا عند الصليب، أما الثلاث ساعات التاليــة فكانت هناك ظلمة من نوع آخر، أكثر رعباً وأشد هولاً. وإن كان المسيح فــي ساعات النور تحمَّل بشاعة الخطية، فإنه في ساعات الظــلام حمـل عقوبتــها. فالله جعله خطية، وفيه «دان الخطية فــي الجســد» – أصــل كـل الشــرور

والنجاسات. كما أنه حمل خطايانا – الأفعال الشريرة ذاتها، وتألم من أجلها (٢كو٥: ٢١؛ رو٨: ٣؛ ١بط٢: ٢٤؛ ٣: ١٨)

هنا نحن نرى الثمن الحقيقي للفداء، عندما ترك الله المسيح. إنَّ أفكار الناس من كل الأجناس، وقلوب الملايين من كل القبائل والشعوب ترنو لذياك الصليب، وتميل لتنظر هذا المنظر المهيب. فالصليب هو قلب الإيمان المسيحي، وتلك الصرخة هي قلب الصليب، وهذه العبارة من فوق الصليب من بين عبارات المخلِّص السبع هي قلب كل العبارات.

إنَّ أفكار الناس من كل الأجناس ترنو لذياك الصليب، وتميل لتنظر هذا المنظر المهيب. فالصليب هو قلب الإيمان المسيحي، وتلك الصرخة هي قلب الصليب، وهذه العبارة من فوق الصليب من بين عبارات المخلِّص السبع هي قلب كل العبارات.

نعم، «نحو الساعة التاسعة (وهي تعادل الثالثة بعد الظهر بتوقيتنا الحاضر) صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي، إيلي، لَمَا شبقتني؟ أي: إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» أيُّ ذهن يقدر أن يسبر غور أعجوبة الأعاجيب هذه؟ أيُّ فكر يقدر أن يتخلل أستار الظلام هذه؟ أيُّ عقل يقدر أنْ يفسِّر أو يفلسف تلك الصرخة التي لم يُسمَع نظيرها، ولن يُسمَع؟

ولقد تحمَّل المسيح كل هذا من أجلنا. فإذا أردنا أن نعرف عُلوَّ محبة المسيح تجاهنا، فعلينا أولاً أن نعرف عمق الألم الذي قاساه لأجلنا. والواقع إن كليهما أبعد من القياس: فآلامه تفوق الإدراك، ومحبته فائقة المعرفة.

ولا أعتقد أن هناك صرخة – في الزمان أو في الأبدية – تحوي من الألم والفزع ما تحويه صرخة المسيح هنا «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟». فهيا الآن

بروح الخشوع، وبنعال مخلوعة نميل، لننظر هذا المنظر العظيم. فإنه عندما يستحيل على عقولنا أن تفهم أو تستوعب، تستطيع قلوبنا أن تسجد بتعجب وخشوع، ولو لم تدرك الكل. ولهذا، فليس بعجيب أننا في السماء، مع جميع المفديين، سنرنم له قائلين «مستحق أنت... لأنك ذُبِحتَ واشتريتنا» (رؤ ٥:٩).

لماذا تركه اللهُ؟

لقد كانت صرخة المتألم الصابر وهو فوق الصليب هي «لماذا تركتني؟». ولنا نحن أيضاً أن نسأل: لماذا تركه الله؟ لقد تركه لأن هذه هي أجرة الخطية، فأجرة الخطية هي موت. وما هو الموت؟ هل هو الصمت المخيف الذي يسود المشهد الحزين بعد النَّفَس الأخير الذي يخرج من الجسد الساكن؟ هل هو تلك البرودة التي تزحف على الجسد بعد توقف دورته الدموية؟ هل هو ترك الأحباء والأقرباء لحبيبهم في ظلمة القبر وحيداً؟ إنه في الواقع أكثر من ذلك بكثير، وأكثر رعباً بما لا يُقَاس. وإنْ كان الموت الجسدي هو انفصال الروح عن الجسد، فإنَّ الموت الروحي هو انفصال روح الإنسان عن الله. إنه التَّركُ من قِبَل الله. إنه البعد عن الله مصدر الحياة، والانفصال عن الله مصدر النور.

لهذا كان ينبغي أن يُترَك المسيح من الله، لأنه فوق الصليب كان يدفع، نيابةً عنا، أجرة الخطية التي هي موت. ومَن أنا حتى يمكنني أن أتكلم عن هذا الأمر؟ ومَن أنا حتى أحاول أن أشرح أو أفسر هذه العبارة العجيبة؟

لقد تكلمنا عن العبارات الثلاث الأولى، وأمكننا أن نتأمل طويلاً في معانيها، ذلك لأن تلك العبارات تتمشى مع الكثير من أقوال المسيح السابقة في حياته. فإن كلمته الأولى «يا أبتاه، اغفر لهم» والتي فيها يطلب الغفران للأعداء، وإنْ كانت غريبةً تماماً على الطبيعة البشرية، لكنها ليست غريبةً عليه

هو الذي علّمنا أن نحب أعداءنا. وإن كان المسيح، في كلمته الثانية، أظهر اهتماماً بأمه، فهذا أيضاً ليس بمستغرَب على شخص هو كمال الكمال في كل شيء، فكيف لا يُظهِر الكمال في دائرة العلاقات الطبيعية أيضاً؟ وإن كان المسيح، في عبارته الثالثة من فوق الصليب، قد فتح باب الفردوس أمام خاطئ هالك، ولص مجدف، فهذا أيضاً ليس غريباً عليه، وهو قد جاء خصيصاً لكي يطلب ويخلِّص ما قد هلك. أما أن ينطق المسيح بهذه العبارة «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» فهذا هو أعجوبة الأعاجيب حقا!

مَنْ فينا يعرف حقيقة الترك من الله ومعناه؟ لا أحد. فإننا بالكاد نعرف جزئياً ما نعانيه في لحظات اليأس القاتلة، عندما أحسسنا في لحظات أننا طُرِحنا من قدام وجهه، وفقدنا ابتسامة محبته في وجوهنا. لكن ذلك في الواقع ليس هو الترك من الله. لأن الله قال للمؤمن «لا أهملك، ولا أتركك» (عب١٣:٥،٦).

حتى الأشرار الذين أبعدوا الله عن تفكيرهم، لم يختبروا إلى هذه اللحظة المعنى الرهيب للترك من جانب الله. فلقد قال الرسول بولس للوثنيين في أثينا إن الله «عن كل واحد منا ليس بعيداً. لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد»، إذ أنه «يعطي الجميع حياة ونفساً وكل شيء» (أع١٧:٢٥،٢٧،٢٨). نعم، حتى الأشرار لم يسمعوا بعد القول الرهيب: «اذهبوا عنى يا ملاعين»، ولا القول الخطير «تباعدوا عنّي يا جميع فاعلي الظلم» (مت٢٥:٤١؛ لو١٣:٢٧).

أمَّا الصديقون والأبرار فقد كان الرب ملجأهم في أزمنة الضيق. يقول داود النبي «ويكون الرب ملجأ للمنسحق، ملجأ في أزمنة الضيق، ويتكل عليك العارفون اسمك، لأنك لم تترك طالبيك يا رب» (مز٩:٩،١٠)، ويقول «أيضاً كنت فتى وقد شخت، ولم أرَ صدّيقاً تُخلِّيَ عنه» (مز٣٧:٢٥)، وأيضاً «عليك اتّكل آباؤنا، اتكلوا فنجيتَهم، إليك صرخوا فنجَوا، عليك اتكلوا فلم يخزَوا» (مز٢٢:٤،٥). وعندما

كانت تضيق بهم الظروف، كان لسان حالهم «لماذا أنت منحنية يا نفسي؟ ولماذا تئنين فيَّ؟ ترجَّي الله، لأني بعد أحمده، خلاص وجهي وإلهي» (مز ٤٢: ١١).

وفي ساعة احتضارهم، كم كان الرب قريباً منهم! يقول داود «أيضاً إذا سرتُ في وادي ظل الموت، لا أخاف شراً، لأنك أنت معي» (مز ٢٣: ٤). فالرب لا يترك عبده المنتقل يعبر الوادي بمفرده، ولا يترك واحداً من قديسيه في الأتون وحده، ولم يترك أحد الشهداء في ساعة احتضاره، بل كانوا في ساعتهم الأخيرة بمعية الرب الشخصية، وروح المجد والله حلَّ عليهم، فنسوا عذاباتهم، واستطاعوا أن يترنموا وهم مساقون إلى الاستشهاد. قال الرسول بولس «الجميع تركوني... لكن الرب وقف معي وقواني» (٢تي ٤: ١٦، ١٧). أما يسوع فلم يكن هذا حاله، فإن صرخته المُرَّة كانت خارجة من عمق أعماق الحزن، ما سمعتها نفس حساسة إلا وسَرَتْ بسببها رعدة في البدن.

لكن هذه الصرخة ليست فقط غريبة على اختبارات كل القديسين والأبرار، بل إنها في المقام الأول غريبة عن اختباره هو، ذاك الذي منذ الأزل، وإلى الأبد، هو في كمال الشركة مع أبيه. اسمعه يقول، حسبما ورد في أمثال ٨: ٢٧-٣٠ «لما ثبَّتَ السماوات كنت هناك أنا... لمَّا رسم أسسَ الأرض كنتُ عنده صانعاً، وكنت كل يوم لذته».

ثم تأمله في خلال الثلاث والثلاثين سنة التي عاشها هنا فوق الأرض. هل تركه الله طوال حياته؟ كلا، بل كان بحق «الساكن في ستر العليِّ، وفي ظل القدير يبيت» (مز ٩١: ١). لقد تمتع هو - تبارك اسمه - بشركة مع الله غير مُعطَّلة. كان شعاره «جعلتُ الرب أمامي **في كل حين**، لأنه عن يميني فلا أتزعزع». أما الآن فقد انسحب منه دفء الشركة والمحبة والحضرة الإلهية. لقد تُركَ بديلُنا المبارك في ساعات الظلمة فوق الصليب، فصرخ

«إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»

إن المسيح – في ساعات النور – عندما كان جسده القدوس نهباً للنظرات الشريرة الفاجرة من البشر تحمَّل صامتاً؛ أما في ساعات الظلمة، عندما حُرِمَ نظرة الله المُحب، تلك النظرة التي كانت فيها حياته، فقد صرخ قائلاً «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟»

عمق أحزان المسيح

لم يصرخ المسيح: "يا إلهي لماذا تتكر لي أبناء بلدتي؟"، فلقد رفضه من البداية أهل مدينته، الناصرة، بل حاولوا طرحه من فوق الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه. ولم يصرخ: "لماذا خذلني أصدقائي؟"، فالوحي يقول في مناسبة أخرى إن كثيرين من تلاميذه رجعوا إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه. نعم، ليس تنكُّر أبناء بلدته، ولا خذلان أصدقائه له، هو سر صرخته الآن. بل إن الرب أيضاً لم يصرخ قائلاً: "لماذا أنكرني بطرس؟"، أو "لماذا خانني يهوذا؟"، وكأنه يقول "أنا أفهم ترك أقربائي ومُواطِنيَّ لي، لأنه أيَّة شركة للنور مع الظلمة. وأفهم هروب التلاميذ وتركهم إياي بمفردي، لأن الجسد ضعيف. لكن لماذا تركتني يا إلهي؟!"

كان الرب في اليوم السابق قد قال لتلاميذه «هوذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته، وتتركونني وحدي»، ثم أضاف «وأنا لست وحدي، لأن الآب معي» (يو١٦: ٣٢). فعندما تركه التلاميذ كلهم وهربوا، كان له في رفقة الآب كل العزاء. وعندما نضب ينبوع محبة الناس ووفائهم، راح ينهل الزلال العذب من محبة الله ونور وجهه. أما الآن وهو فوق الصليب، إذ أتت ساعات الظلمة الرهيبة، فقد انسحبت منه هذه التعزية. هناك لم يصبّ أحدٌ على

جراحاته زيتاً وخمراً، هناك لم يسمع سيدنا كلمة عطف من السماء، هناك لم يأت ملاك يقويه وهو في حزنه الشديد. لقد توقفت خدمة الروح القدس لروحه الإنسانية، وانقطعت ابتسامة وجه الآب، ولهذا فإنه صرخ «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟»

استمع إلى تنهدات سيدنا كما عبَّر عنها روح النبوة في المزامير «يا رب، لماذا تقف بعيداً؟ لماذا تختفي في أزمنة الضيق» وأيضاً «أقول لله... لماذا نسيتني؟» وأيضاً «أنت إله حصني. لماذا رفضتني؟» وأيضاً «لماذا يا رب ترفض نفسي؟ لماذا تحجب وجهك عني؟ أنا مسكين» (مز ١٠:١؛ ٤٢:٩؛ ٤٣:٢؛ ٨٨:١٤).

إنه أمر محزن أن يُتركَ شخصٌ من أصدقائه، أو أن تُترك عروسٌ من زوجها، وأن يُترك طفلٌ من والديه. أما أن يُترك شخصٌ من الله، فهذا هو العذاب الذي لا يشفق. لقد فضَّل موسى أن يموت هو والشعب على رمال البرية، وأن تنهش جثثهم حيواناتُ الصحراء، وتنقضُّ عليها كواسر السماء، على أن يُحرَموا من ضياء وجه الرب، فقال للرب «إن لم يسر وجهك فلا تُصعدنا من ههنا» (خر ٣٣:١٥). وهذا هو سر تلك الصرخة التي شقَّت ستار الظلام في الجلجثة. فعندما انسحب منه دفء الشركة والمحبة والحضرة الإلهية، وعندما تُرِكَ بديلنا المبارك وحيداً، فإنه صرخ «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟».

أمام تهكمات البشر ظَلَّ صامتاً، وعندما قاسى على أيديهم العذاب ألواناً لم يصرخ. أما الآن عند حمو غضب إله السماء الذي انصب عليه، وعندما تركه الله فإنه صرخ إلهي، إلهي لماذا تركتني؟

أمام تهكمات البشر ظَلّ صامتاً، وعندما قاسى على أيديهم العذاب ألواناً لم يصرخ. أما الآن عند حمو غضب إله السماء الذي انصب عليه، وعندما تركه الله فإنه صرخ «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟»

ألعلنا بعد ذلك نكون قد عرفنا عمق أحزان المسيح، وما احتمله في ساعات الظلمة الرهيبة؟ كلا البتة. فلقد وقفنا فقط على شاطئ آلامه، وأمامنا بحرٌ عجَّاجٌ، بحرٌ أمواجه هائجة مزبد بالخزي، بحرٌ بعيد الأغوار وملئ بالأسرار.

رجلُ الرفقةِ كيف قد تُركتْ	أنتَ يا مَنْ لذَّةَ اللهِ صنَعتَ
منشأُ الفرحةِ موضوعُ الرضا	كيف ربي غضبَ اللهِ احتملتَ
لستُ أدري أيَّ حزنٍ كنتَ فيه	أيَّ مُرٍّ ذُقتَ ربي بل شربتَ
كلَّ ما أدريه عنكَ صرخةً	تكشفُ الأعماقَ عما فيه جُزتَ
يا إلهي يا إلهي لِمَ أنتَ	قد حجبتَ الوجهَ عني وتركتَ
آه ربي كان ذا عني أنا	كم سبيتَ القلبَ فيَّ وأذبتَ!

إننا من خلف حجاب تلك الظلمة نرى سيدنا كذبيحة الخطية، يتألم الآلام الكفارية. نراه يحمل حمل خطايانا الثقيل عندما وضع الرب عليه إثمَ جميعنا. نراه وقد جعله الله خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه. نراه يحتمل حُمُوَّ غضب الله الديان العادل ضد الإنسان الشرير. نراه يدفع هو أجرة الإثم الذي فعلته أيدينا، لظىً ولهيباً، وهو – بصفته الضامن – كان يدفع الغرم الذي كان علينا نحن أن ندفعه، يوم قال للعدل الإلهي "احسب خطاياهم عليَّ، أنا أوفي". ثم نجده بذلك يمحو بدمائه الصك الذي كان علينا، ويزيل بصليبه اللعنة التي كانت تهددنا، ويهدم بموته حائط السياج المتوسط الذي كان يفصل الإنسان عن أخيه، وبجسده يفتتح الطريق الحديث إلى محضر الله، وفي قبره يدفن خطايانا ويتركها هناك إلى الأبد. وفي كل ذلك نراه هناك منهمكاً في أعنف صراع، ويسجِّل أروع انتصار به مجَّد لله، وقهر الشيطان، وخلَّص الإنسان!

لكنني بعد كل هذا أجدني أفعل كما فعل أمير الوعاظ سبرجون عندما قال:

"لقد حاولت، قدر استطاعتي، أن أشرح هذه الصرخة العجيبة، لكنني الآن أشعر أني كنت مثل طفل صغير يحاول أن يشرح شيئاً عويصاً. ولهذا فإني أكتفي بأن أقول إن الله في ثلاث ساعات الظلمة ترك الرب يسوع على الصليب".

وأما إذا سألتني لماذا؟ فإن التفسير البسيط والمباشر هو أن المسيح أخذ مكاننا في الجلجثة. إلى حيث أوصلت الخطيةُ الإنسانَ، إلى ذات المكان أوصلت النعمةُ المخلِّصَ. لقد دخل المسيح الظلمة ليكون لي أنا النور، وشرب كأس الأهوال لأشرب أنا كأس الهنا، وتُرِك هو ليمكنه أن يقول لي في محبة عجيبة «لا أهملك، ولا أتركك»، وليكون لي الشركة الأبدية معه في بيت الآب.

وعلى طريق الجلجثةْ ظهرتْ جموعُ الزاحفينْ
والربُّ يحملُ حِملَهُ ويَرى الشبابَ الساخرينْ
الحِملُ ليسَ بحِملِه الحِملُ حِملُ المجرمينْ
والمريماتُ هَمَسنَ في نَغمٍ يقطِّعهُ الأنينْ:

لِمَ كان ذاك؟

كان ذاكَ لأنَّ ذاكَ هو الطريقُ وليس غيرَهْ
هو الطريقُ إلى خلاصِ الخاطي من ويلات شرِهْ
يشربْ هوَ كأسَ العذاب نيابةً، يشربْها مُرَّهْ
ويذوقُ عنَّا الموتَ، بل ويقاسي جَمرَهْ

تأملات في صرخة المسيح

إن لهذه الكلمات التي نطق بها المسيح بعد ساعات الظلام (كلمات السهجر)

وضع فريد وقيمة خاصة.

فأولاً: هي بين عبارات المسيح السبع من فوق الصليب تشغل مكان الوسط، يسبقها ثلاث عبارات ويليها ثلاث عبارات.

ثانياً: إنها العبارة الوحيدة من بين عبارات المسيح التي وردت في أكثر من إنجيل واحد (متى ومرقس*).

ثالثاً: إنها اقتُبِسَت بنصِّها من أهم المزامير المسياوية (مزمور٢٢).

رابعاً: أن كِلا البشيرين متى ومرقس، نقل إلينا هذه العبارة للمسيح باللغة الأرامية، وبذات الألفاظ التي خرجت من فم القدوس المتألم، قبل أن يكتبا معناها باليونانية، وكأنهما خشيا أن يحجب نقلها لليونانية شيئاً من مدلولها. أو كأنهما استخسرا ألا تُخلَّد ذات العبارة التي صرخ بها الرب من عمق أعماق الألم نيابةً عنا.

ونريد الآن، بعد أن تأملنا في كلمات الصرخة، أن نتأمل في مدلول الصرخة ذاتها.

أولاً: كمالات الفادي

١- **لغة الكتاب:** نلاحظ أولاً أن تلك الصرخة إنما هي اقتباس من المزمور ٢٢ الذي يُعتبَر لسان حال المسيح وهو فوق الصليب. وقد كتب هذا المزمور داود النبي بوحي من الروح القدس قبل الصليب بنحو ألف عام. وعليه، فإن هذه الصرخة ترينا أن الصلاة وكلمة الله كلتيهما كانتا غاليتين وثمينتين جداً في نظر الرب، حتى وهو في أحرج موقف، وأصعب حالة. فلقد كانت لغته هي لغة الكتاب المقدس. وكان اتجاهه

* وردت صرخة الترك من الله في إنجيل متى الذي يحدثنا عن المسيح كذبيحة الإثم، وإنجيل مرقس الذي يحدثنا عن المسيح كذبيحة الخطية. فعندما صار المسيح فوق الصليب ذبيحة خطية وذبيحة إثم تركه الله الذي لا يطيق الخطية والإثم!

الطبيعي هو إلى الله، مثل إبرة البوصلة في اتجاهها دائماً إلى الشمال.

٢- **الثقة العظيمة في الله:** لكن هذه الصرخة تُرينا شيئاً آخر: فإن كانت صلاته في بستان جثسيماني أظهرت عمق طاعته لأبيه وخضوعه له، عندما قال له «ليكن، لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت» (مر١٤: ٣٦)، فإن صرخته هنا في الجلجثة تبيِّن سمو إيمانه. من ثَمَّ أتت الصرخة التي تصاعدت من نفسه المتألمة «إيلي، إيلي، لَمَا شبقتني. أي: إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»، فهو لم يصرخ من الله، بل صرخ إلى الله. فهو متروك منه، ويصرخ إليه. أليس هذا سمو الإيمان بعينه؟ فنحن قد نتكل على الله عندما تكون الشمس مشرقة، أما المسيح، فمن عمق ظلمة لم يعرف التاريخ البشري نظيراً لها، يقول: «إلهي». إنه لا يخاطبه قائلاً "يا الله"، بل «إلهي» ويكرر ذلك مرتين* «إلهي، إلهي». لقد ثبت بحق أنه هو «رئيس الإيمان، ومُكَمِّله» (عب١٢: ٢).

إن كانت صلاته في جثسيماني أظهرت عمق طاعته لأبيه، فإن صرخته هنا في الجلجثة تبيِّن سمو إيمانه. إنه لم يصرخ من الله، بل صرخ إلى الله. فهو متروك منه، ويصرخ إليه. أليس هذا سمو الإيمان بعينه؟

٣- **الاتكال الكليّ على الله:** واللفظ الذي خرج من فم سيدنا هو «إيلي، إيلي». وكلمة "إيل"، وهي أحد أسماء الجلالة في اللغة العبرانية، تعني

* يعرف البعض أن الله نادى سبعة أشخاص بأسمائهم مكررة مرتين، وهم: إبراهيم، يعقوب، موسى، صموئيل، مرثا، سمعان، شاول. وكان تكرار الاسم يدل على اهتمام الله العميق والخاص بهؤلاء الأشخاص. أما هنا فنجد الإنسان الكامل هو الذي ينادي الله باسمه مرتين، وكان هذا التكرار يدل على تكريس عميق لله وحب كامل له!

"القويّ". فكأن المسيح ينادى الله قائلاً: "يا قوتي، وسند إنسانيتي، الـــذي ليس لي سند سواك ولا قوة غيرك؛ لماذا تركتني؟"

لقد كان المسيح من بداية إنسانيته، من بطن أمه، متكلاً على الله. وهـــذا ما يخبرنا به نفس المزمور ٢٢ الذي يبدأ بصرخة الترك من جـــانب الله «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» إذ يستمر الرب مخاطباً إلهه فيقول «لأنـــك أنت جذبتني من البطن، جعلتني مطمئناً على ثديي أمي. عليك أُلقيتُ مـــن الرَّحم. من بطن أمي أنت إلهي». فهو متكِل على الله من بطـــن أمـــه. لكن ها هم أعداؤه يستهزئون به لهذا السبب نفسه: إذ يقول «كـــل الذيـــن يرونني يستهزئون بي. يفغرون الشفاه، وينغضون الرأس قائلين: اتكـــل على الرب فلينجِّهِ». لكنه، رغم ذلك، ما زال متمسكاً بإلهه، فيقـــول لـــه «لا تتباعد عني لأن الضيق قريب. لأنه لا معين»، وأيضاً «أما أنـــت... فلا تبعد. ياقوتي أسرع إلى نصرتي».

ثانياً: البداية والفداء

نلاحظ أن الرب اعتاد في حياته أن يصلي إلى الله مخاطباً إياه «يا أبتـــاه»، أو «أيها الآب». أما هنا، في صرخة المسيح في ساعات الظلمة، فلا يقول لـــه «يا أبتاه»، بل ها نحن نسمعه لأول مرة يقول: «إلـــهي، إلـــهي*». ذلـــك لأن المسيح، في هذا الموقف، كان ممثلاً للإنسان أمام الله، ديَّان كل الأرض. هنـــا، وفي هذا السؤال، نفهم أحد معاني الكفارة.

* لم يصرخ المسيح من فوق الصليب إلى "يهوه"، بل إلى الله "إيلوهيم"، وذلك لسببين:

١- اسم "يهوه" هو اسم علاقة الله بشعبه إسرائيل. والمسيح فوق الصليب لم يكـــن يتـــألم لأجـــل خطايا إسرائيل فحسب، بل لأجل كل الخطايا التي ارتُكبت من بداية التاريخ.

٢- لأن هذه الصرخة تصور لنا البعد الذي وضعت الخطية فيه الإنسان، وليس العلاقة الخاصـــة والقرب الذي يُستفاد من اسم "يهوه".

يقول المسيح «لماذا»، وعندما يسأل المسيح «لماذا»، ولا يتلقى على سؤاله هذا جواباً، فلا أتوقع أني أنا المحدود يكون لديَّ الجواب. ولكننا مع ذلك، إذا سرنا قليلاً في المزمور الذي يُفتَتَح بصرخة المسيح هذه، فإننا نجد في العدد الثالث منه ما يمكننا أن نعتبره الرد على هذا السؤال الذي بلا جواب، إذ يقول «وأنت القدوس». فالله لم يترك المسيح ظُلماً. حاشا! بل تركه لأنه القدوس. أتسأل: ولماذا الله – باعتباره القدوس – يترك المسيح فوق الصليب؟ الإجابة: ليس لأن في المسيح أي شيء لا يتوافق مع الله وقداسته. كلا البتة، بل لأنه – تبارك اسمه – قَبِلَ أن يُمثِّل الخطاة، وكانت خطايانا موضوعة عليه في ذلك الوقت.

يستطرد المسيح فيقول «وأنت القدوس الجالس بين تسبيحات إسرائيل». فكيف لله القدوس أن يسكن وسط تسبيحات شعب خاطئ إلا على أساس الكفارة؟ أليس هذا أمراً عجيباً ومجيداً؟! لقد تُرِكَ ليكون لنا نحن علاقة وشركة مع الله. وفي المزمور عينه الذي يبدأ بصرخة التَّرك، نقرأ عن تسبيحات الشركة، فيقول المسيح «أُخبر باسمك إخوتي، وفي وسط الجماعة أسبِّحك». وتتكرر التسبيحات في هذا المزمور من جموع المفديين (ع٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٦)، وكلها بُناءً على صرخة الفادي في أول المزمور. لذا كان ينبغي أن يذوق المسيح الموت بكل رعبه وهوله، يذوقه بنعمة الله، ليكون هو بنفسه الكفارة لشعبه.

ثالثاً: بشاعة الخطية

إن هذه الصرخة لا ترينا فقط برّ الله وقداسته اللذين لم يظهرا في كل التاريخ كما ظهرا في الجلجثة، بل ترينا أيضاً الخطية في بشاعتها. ولئن كان بوسعنا أن نرى بعضاً من نتائج الخطية المروعة إذا تأملّنا في ويلات الحروب والأمراض، إذا نظرنا إلى المقابر وإلى السجون، وإذا ألقينا نظرة على

المُحطِّمين في الحانات والمراقص ودور الفجور ونوادي القمار؛ فإننا لن نرى الخطية في بشاعتها حقاً كما نراها في الجلجثة.

لقد ظهرت الخطية في بدايتها أنها تدمير للنفس، وفي تطورها أنها تدمير للغير، وفي ذروتها تدمير لابن الله. ففي الجنة نرى بداية الخطية وكيف دَمَّر الإنسان نفسه، وخارج الجنة نرى الخطية في تطورها عندما قام قايين على هابيل وقتله. وفي ذروتها، نرى ارتجاج الأمم وتَفَكُّر الشعوب في الباطل، عندما قاموا معاً على الرب وعلى مسيحه. ولكن سواد الخطية القاتم نميزه، في لونه الحقيقي، في ساعات الظلمة الرهيبة، عندما تُرِكَ المسيح من الله فوق الصليب إذ جُعِلَ خطيةً لأجلنا.

آه، أيمكننا بعد ذلك أن نهادن الخطية التي سببت هذه الأحزان لسيدنا؟ أيها الشر، إن كل الذين يحبون الرب يبغضونك. أيتها الخطية، إنك مستهجنة مستقبَحة عند كل القلوب التي ملك المسيح بالحب عليها، فلقد كنتِ سبب صلب سيدنا ومعبود قلوبنا، وبسببك صرخ صرخته المُرَّة «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟

رابعاً: مصير الخطاة الرهيب

إن ظُلمة الجلجثة تعبِّر عن ظلام المصير التعس لكل من يرفض ابن الله، وصرخة المسيح إذ تركه الله، تصوِّر رعب اليأس الأبدي الذي ينتظر كل من يرفض خلاصاً عظيماً هذا مقداره أعدَّه المسيح في الجلجثة.

هناك نبوة في سفر عاموس تتحدث عن مصير تعس لتلك الأمة التي رفضت مسيّاها وقتلته، فيقول النبي «ويكون، في ذلك اليوم، يقول السيد الرب، أني أغيِّب الشمس في الظهر، وأُقتم الأرض في يوم نور» (عا٨:٩). هذا هو ما سوف يحدث في يوم عتيد مع تلك الأمة التي لم تعرف زمان افتقادها، واحتقرت مخلّصها وفاديها. فيا قارئي العزيز، هل أنت واحد من أولئك؟ هل

تعرف أنت زمان افتقادك؟ إن كل من يرفضون المسيح سوف يطويهم ظلام رهيب «الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان». إنّ ما تحمّله المسيح في ساعات الظلمة من نوعي الألم يتجاوب مع نوعي الآلام التي سيقاسيها الأشرار في بحيرة النار: وهي آلام إيجابية وأخرى سلبية. فهم سيحسون بالعذاب الواقع عليهم، وبالخسارة التي لحقت بهم إلى أبد الآبدين. وهكذا المسيح هنا: غضب الله واقع عليه، وابتسامة رضاه قد فارقته.

لقد ظهرت الخطية في بدايتها أنها تدمير للنفس، وفي تطورها أنها تدمير للغير، وفي ذروتها تدمير لابن الله. ولكن سواد الخطية القاتم نميزه، في لونه الحقيقي، في ساعات الظلمة الرهيبة، عندما تُرِكَ المسيح من الله فوق الصليب إذ جُعِلَ خطيةً لأجلنا.

وعلى العكس من ذلك، فإنه بالنسبة للمؤمنين، عبرت الظلمة برعبها على بديلهم الكريم، والنور الحقيقي الآن يضيء. وسبيلنا كنور مشرق، يتزايد وينير إلى النهار الكامل. وفي هذا النهار الأبدي لن يغيب عنا البتة ضياء محياه الكريم (رؤ ٢٢:٤).

وأخيراً أقول: إن صرخة المسيح هذه تغلق الباب تماماً على الواهمين الذين يرجون خلاصاً عاما وشاملاً لجميع البشر، وبغضّ النظر عن موقفهم من حمل الله الكريم، تحت زعم أنه رحيم. نعم، الله رحيم جداً، ورحمته العجيبة ظهرت في أناته على البشر واحتماله لشرورهم كل هذه الآلاف من السنين. وهو ليس رحيما فقط، بل هو أيضا محبّ، ومحبته تبرهنت في إرسال ابنه الوحيد وبذله لأجلنا على الصليب، ولا برهان على محبة الله أقوى من صليب المسيح. لكن الصليب بعينه يعطينا برهاناً لعدالة الله وبره. فإنْ كان الله لم يتساهل مع الخطية عندما وُضعت على ابنه، فماذا سيفعل بك يا من تحتقر

محبته، وترفض إبنه الذي قدمه فدية لأجلك؟

حِسَاب، عِقَابَ فِي يَـــومٍ قَرِيــبْ
يَا مَنْ دُستَ ابن الإلــهِ الحبيــبْ
يَا مَنْ قَدْ حَسِبتَ دِمَــاءَ المَسِــيحْ
لا تَكْفِي لا تَشفِي احْتَقرْتَ الذبيــحْ
سَيَبقَى الصَّلِيـــبُ لِيَنْجُــو البَعِيــدْ
وأَنْتَ سَتَبْقَى فِـــي مَــوْتٍ أَكِيــدْ

فَمَاذَا سَتَفْعَلْ فِي يَــومْ الحِسَــابْ
وكيفَ تراهُ فـــي يَــومِ العِقَــابْ؟
بِدُونِ الصَّلِيــبِ بِــدُونِ الفِــدَاءْ
بِغَــيْرِ المَسِــيحِ، بِغَــيْرِ الــرِّدَاءْ
سَتَقِفُ تَصْيحُ، ويَعْلُــو البُكَــاءْ
ولَيْــسَ بِنَفْــعٍ، ولَيْــسَ رَجَـــاءْ

العبارة الخامسة من فوق الصليب

كلمة الألم

بعد هذا رأى يسوع أنّ كل شيء قد كمل، فلكي يتم الكتاب قال:

أَنَا عَطْشَانُ.

وكان إناء موضوعاً مملوءاً خلاً، فملأوا إسفنجة من الخل، ووضعوها على زوفا، وقدّموها إلى فمه

(يو١٩: ٢٨، ٢٩)

هذه العبارة، بين عبارات المسيح السبع من فوق الصليب، هي الوحيدة التـــي تخُصّ سيدنا وحده دون سواه. فكلماته الثلاث الأولى في ســـاعات النـــور وجّـــه واحدة لأبيه، والثانية لأمه وليوحنا، والثالثة للّص التائب. ثم أتت العبارة الرابعـــة موجّهة إلى الله، والسادسة إلى كل من يعنيه الأمر، والسابعة والأخيرة إلـــى أبيـــه أيضاً. أما هذه فهي ليست موجّهة إلى أحد، ولا تتحدث عن أحد. إنها فقط تُعـــبّر عن إحساسه هو وحاجته هو. ثم إن هذه العبارة هي أصغر كـــل العبـــارات مـــن فوق الصليب، فهي في اللغة اليونانية: اللغة الأصلية للعهد الجديـــد، وردت كلمـــة واحدة صغيرة، من مقطعين اثنين، ومن أربعة حروف. لكنها رغم هـــذا، شـــأنها شأن كل عبارات المسيح من فوق الصليب، عبارة عميقة وعظيمة.

وسنتأمل هذه الكلمة في خمس ثنائيات:

حقيقة ناسوت المسيح، وبرهان لاهوته

أما أولاً، فإن هذا النطق يعبّر بوضوح عن حقيقة ناسوتية المسيح. فعندمـــا صرخ يسوع قائلاً «أنا عطشان»، كانت تلك الصرخة دلالة علـــى أن المســـيح إنسان بكل معنى الكلمة، فحاشا لله أن يعطش، لكنه في غِنـــى نعمتـــه، ولإتمـــام عمل الفداء قَبِلَ، وهو الله: الكلمة الأزليّ، أن يصير إنساناً. إنه لم يَصِرْ مجـــرد

روح أو خيال، بل كان إنساناً بكل معنى الكلمة. ولهذا فقد تكوَّن له جسدٌ، بالروح القدس، في بطن المُطوَّبة العذراء مريم، ثم أخذ هذا الجسد ينمو بوصفه الإنسان الكامل الذي شاركنا البشرية في كل شيء، عدا الخطية: فجاع، وتعب، ونام، وبكى، وصلّى (مت٤:٢؛ يو٤:٦؛ مر٣٨:٤؛ يو١١:٣٥؛ مر١:٣٥)، وها نحن نراه فوق الصليب، وقد يبس لسانه من العطش يصرخ قائلاً «أنا عطشان»! هذا كله فعله الإنسان يسوع المسيح.

لكن صرخة المسيح تلك بعينها هي في الوقت نفسه البرهان على لاهوته، وهذا ما نفهمه من القرينة التي وردت فيها هذه العبارة، إذ يقول البشير: «بعد هذا، رأى يسوع أن كل شيء قد كمل، فلكي يتم الكتاب قال: أنا عطشان». هنا نجد أمرين يؤكدان لاهوت المسيح: فأولاً هو رأى أن كل شيء قد كمل. وهذا معناه أنه – تبارك اسمه – كان يميّز ويدرك كل الأمور التي جرت والتي تجري. فالوحي لا يقول إن أحداً أخبره، بل يقول إنه رأى. وهي الكلمة اليونانية عينها التي تُرجِمَت في هذا الإنجيل عدة مرات «عَلِم*». ما الذي رآه، أو بالحري عَلِمَه، ذلك المصلوب؟ لقد رأى كل شيء، ومن ثَمَّ علم أن كل شيء قد كمل. أيمكن أن يكون إنساناً عادياً ويحيط علماً بكل شيء؟ أيمكن وهو في مثل تلك الآلام الرهيبة – لو كان هو مجرد إنسان – أن يُقال عنه إنه علم أن كل شيء قد كمل؟

لكن ليس فقط رأى وعلم أن كل شيء قد كمل، باستثناء أمرٍ واحدٍ صغير، بل إنه أيضا نطق بكلمة واحدة قصيرة، جعلت هذا الشيء الوحيد الذي لم يكن قد تم بعد يتمّ في الحال.

نعم، لقد مرّ بفكره وذهنه على كل الأحداث الرهيبة التي تمت معه في تلك

---

* انظر مثلاً [illegible] ١٨:٤؛ ١٧:٢١ [illegible]

الساعات، فرأى أن النبوات العديدة التي سبقت عنه قد تمت جميعاً. فمثلاً: خيانة أحد تلاميذه له كما ورد في المزمور ٩:٤١، وترك كل تلاميذه له كما يذكر المزمور ١١:٣١، وأيضاً زكريا ٧:١٣، واتهامه زوراً كما يشهد مزمور ١١:٣٥، وسوقه كشاة إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها كما يقرر إشعياء ٧:٥٣، واقتناع الحاكم ببراءته ومع ذلك أحصي مع أثمة كما أشار إشعياء ٩:٥٣، ١٢، وصدور الحكم بصلبه كما يقول المزمور ٢٢: ١٦، واستهزاءهم به كما يوضح المزمور ١٠٩: ٢٥، وتهكمهم عليه، بل وتحديهم له لينزل من على الصليب كما يرد في المزمور ٢٢: ٧، ٨، ثم اقتسامهم ثيابه بينهم وإلقاءهم القرعة على لباسه (مز ٢٢: ١٨)، وشفاعته في المذنبين (إش ٥٣: ١٢)، وتركه من الله (مز ٢٢: ١). هذا كله وغيره قد تم فعلاً، لكن بقيت نبوة صغيرة لم تتم بعد، هي تلك الواردة في المزمور ٦٩: ٢١ «يجعلون في طعامي علقماً، وفي عطشي يسقونني خلاً». لهذا قال المسيح «أنا عطشان». وفي الحال، كما يقول البشير «ملأوا إسفنجة من الخل، وقدموها إلى فمه». فتم كل ما عنه كُتب.

والواقع أن كون المسيح هو الله وهو الإنسان في آن واحد معاً لهي حقيقة طالما حيرت الكثيرين وأعثرتهم. لكن هذا الحق العظيم لم يعلنه الله لنا في كتابه العظيم ليكون مادة لجدل الإنسان، بل ليقبله بالإيمان، وليتجاوب معه بالسجود والعرفان. وسعيد كل شخص عرف هذا الحق الثمين، الذي هو بإجماع كل المؤمنين، كما هو مكتوب «وبالإجماع عظيم هو سر التقوى: الله ظهر في الجسد» (١تي ٣: ١٦).

لقد صار المسيح إنساناً دون أن يعني هذا أن الله تحول إلى إنسان، ولا أن المسيح كان هنا على الأرض مجرد إنسان، لا أكثر ولا أقل. فلقد بقي في لاهوته كما هو من الأزل وإلى الأبد، لكنه اتخذ بالإضافة إلى ذلك جسداً

وشاركنا في البشرية، ما خلا الخطية. هذه الحقيقة: أعني اتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص واحد، وردت حتى في أسفار التوراة التي بين أيدي اليهود، فيقول إشعياء النبي «لأنه يُولَد لنا ولد (مشيراً إلى ناسوت المسيح)، ونُعطَى ابناً (مشيراً إلى لاهوته)، ... ويُدعَى اسمه **عجيباً**، مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام» (إش٩:٦). ويقول ميخا عن بيت لحم، القرية التي وُلِدَ فيها المسيح «أما أنت يا بيت لحم أفراتة، وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا، فمنك يخرج لي (هنا يشير إلى ناسوت المسيح) الذي... مخارجه منذ القديم، منذ أيام الأزل (إشارةً إلى لاهوته)» (مي٥:٢).

ومع أن هذه الآيات وغيرها موجودة في أسفار التوراة التي ما زالت إلى اليوم بين أيدي اليهود، لكن حتى في أيام المسيح كان غير المؤمنين من اليهود متعثرين أمام هذه الحقيقة، مما جعل المسيح يسألهم ذات مرة: «ماذا تظنون في المسيح؟ ابن مَن هو؟ أجابوه: ابن داود. فقال لهم: فكيف يدعوه داود بالروح رباً قائلاً: قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك؟» فلم يستطيعوا الإجابة. أما المؤمن، الذي أنار الروح القدس ذهنه، فإنه يعرف أن المسيح بالجسد هو ابن داود، لكنه هو في الوقت نفسه رب داود. ويوضِّح المسيح نفسه هذه الحقيقة في آخر أصحاح في العهد الجديد، بل في آخر صفحة في الكتاب المقدس إذ يقول «أنا أصل وذرية داود» (رؤ٢٢:١٦). إنه أصل داود لأنه خالقه، وذرية داود لأنه نسله، وقد وُلِدَ منه!

لكن هذا الشخص العظيم قَبِلَ أن يصير إنساناً ليخلصنا، إذ قَبِلَ أن يفدينا بذبيحة نفسه. وذاك الذي لا يكل ولا يعيا (إش٤٠:٢٨) تعب مرة من السفر ليخلِّص إنسانة مسكينة أتعبتها الخطية. وذاك الجاعل السحاب مركبته (مز١٠٤:٣) عبر من شطٍ إلى شطٍ في بحيرة طبرية وذهب إلى القبور

ليخلص إنساناً بائساً أذلّته الأرواح الشريرة. وذاك المُعلَّق الأرض على لا شيء (أي٢٦:٧) قبلَ أن يُعلَّق فوق الصليب، ومن هناك يقول «أنا عطشان» لِيَهَب كلَّ ظامئ الماءَ الحي.

عمق افتقار الفادي، وشدة آلامه

تأمَّل، عزيزي القارئ، في طريق ذلك الفادي المجيد في هذا العالم. ففي بدايته، لم يكن له مكان في المنزل، بل بدأ حياته في مذود للبهائم. وفي نهايته، لم يكن له حتى كوب ماء يروي غليله. يا لها من صورة للاتضاع والفقر! فهو لم يكن فقط عطشاناً، بل أيضاً لا يقوى على إرواء غليله، لأن قدميه مُسمَّرتان، ويديه مسمرتان. وعندما صرخ قائلاً «أنا عطشان» لم يقدموا له الماء ليسقوه، بل قدموا له الخل!

يا له من افتقار! أإلى هذا الحد المريع من الفقر وصل المخلص المعبود وهو فوق الصليب؟! إننا نراه هنا بلا ثوب يستر جسده، بلا رفيقٍ أو حبيبٍ، بل وبلا أبطال من حوله يشقون المحلة ليستقوا الماء ليقدموه إلى سيدهم المهيب (قارن ٢صم٢٣: ١٥، ١٦). إنه هنا عطشان. وذاك الذي بدأ خدمته الجهارية بالجوع القارص (مت ٤:٤؛ لو٤:٢) ها هو هنا يختمها بالعطش الرهيب!

يا له من افتقار! أإلى هذا الحد المريع من الفقر وصل المخلص المعبود وهو فوق الصليب؟! إنه هنا عطشان. وذاك الذي بدأ خدمته الجهارية بالجوع القارص ها هو هنا يختمها بالعطش الرهيب!

فهل تعرف، أيها العزيز، مَنْ هذا الذي وصل إلى مثل هذا الحد من الفقر؟

أتعرف مَن ذا الذي يقول هنا «أنا عطشان»؟ إنه مَن تُمَجِّده وتُسبِّحه جماهير الملائكة في السماء. أفليس عجيباً أن موضوع شِبَع الآب ومسرته يقول «أنا عطشان»؟! والذي يتحدث الكتاب عن سموه وعظمته فيقول «ليس لعظمته استقصاء» (مز١٤٥:٣) يحتاج إلى رشفة ماء! وأن «الصانع السماوات والأرض» نراه فوق الصليب بحنك يابس!

يتحدث عنه الكتاب فيقول «المُفَجِّر عيوناً في الأودية، بين الجبال تجري، تسقي كل حيوان البر، تكسر الفراء ظمأها» (مز١٠٤:١٠،١١). وفي أيام موسى في القديم «شق صخوراً في البرية وسقاهم كأنه من لجج عظيمة. أخرج مجاري من صخرة وأجرى مياها كالأنهار» (مز٧٨:١٥،١٦) وذلك مُدّة أربعين سنة! بل إنه في أيام جسده قال للمرأة السامرية «لو كنتِ تعلمين عطية الله، ومَن هو الذي يقول لكِ أعطيني لأشرب، لطلبتِ أنتِ منه فأعطاك ماءً حياً» (يو٤:١٠). ووقف مرة في أورشليم وسط جمع حاشد لينادي قائلاً «إن عطش أحدٌ فليُقبِل إليَّ ويشرب» (يو٧:٣٧)، لكنه هنا يقول «أنا عطشان». وهكذا يخرج من العالم عطشان.

إنه الله العظيم الذي «كال بكفه المياه» (إش٤٠:١٢)، كما أنه هو الذي سواقيه ملآنة ماء، يروى أتلام الأرض وبالغيوث يحللها (مز٦٥:٩،١٠)، بل إنه هو نفسه «ينبوع المياه الحية» (إر٢:١٣؛ ١٧:١٣) ها هو هنا يقول «أنا عطشان».

له ميازيب السما	وكل عمر قد طما
لكنه من الظما	قال أنا عطشان

لقد أخلى نفسه، ووجِدَ في الهيئة كإنسان (في٢:٧،٨). لقد افتقر وهو غني (٢كو٨:٩) وأيُّ فقر هذا الذي وَصِل إليه؟ تأملي يا نفسِي في تنازل ذاك

المجيد، وفي افتقار ذلك الغنيّ. ما أوسع الهوة، وأبعد المسافة، بين رب المجد على العرش والمصلوب على الصليب، بين ذاك «المُسقِّف علاليه بالمياه» (مز ١٠٤: ٣) وذاك الذي نسمعه هنا يقول: «أنا عطشان»!

يا لها مِنْ صرخةٍ منها ارتعش	قلبي، بل والفكرُ حارَ واندهشْ
صرخةُ الإنسانِ مِنْ فقرٍ إلى	قطرةِ الماءِ التي تُطفي العطشْ
كيف ربّي قد عطشتَ مرّةً	وبك الأحياءُ طُرّاً تنتعشْ
قد صرختَ «أنا عطشان» لكي	يرتوي الخاطئ منك ويعيشْ

لكننا في هذا النطق نرى أيضاً شيئاً آخر؛ لا عمق افتقار الفادي فحسب، بل أيضاً شدة آلامه وقسوتها. فمن بين الكلمات السبع التي نطق بها - له المجد - من فوق الصليب، كان هذا النطق هو الوحيد الذي عبَّر به عن آلامه الجسدية. وفي خلال رحلة التعذيب القاسية لم ينطق المسيح بكلمة تعبِّر عن تلك الآلام الرهيبة سوى هذه العبارة.

لَكَم تحمَّل الرب يسوع فوق الصليب من آلام! فهو لمَّا وصل إلى الجلجثة كان في إعياءٍ وإجهادٍ شديدين بسبب أحداث الليلة الماضية، إذ كان قد تحدَّث مع تلاميذه حديث الوداع الطويل والذي شغل نحو خمسة أصحاحات كاملة من إنجيل يوحنا، وبعده مضى إلى بستان جثسيماني حيث كان في جهاد وكان عرقه يتساقط كقطرات الدم إلى الأرض، ومن هناك قُبِضَ عليه، وسيق للمحاكمات المتتالية: المحاكمة الدينية في جلساتٍ ثلاث، ثم المحاكمة المدنية في جلساتٍ ثلاث أيضاً. ثم الجَلد الرهيب القاسي، ثم حمْل الصليب الثقيل، والخروج به إلى خارج أورشليم حيث تمت عملية الصلب القاسية الوحشية. ولما صُلِبَ قضى فوق الصليب ست ساعات وكان من وقع معاناته ما عبَّر عنه

في المزمور «يبست مثل شقفة قوتي، ولصق لساني بحنكي» (مز ٢٢:١٥).

ومع اعتقادنا بأن الآلام الكفارية التي أشرنا إليها في نطق المسيح السابق «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» هي جوهر الصليب، وأن ما احتمله المسيح من يد العدل عندما جُعِل خطيةً كان أقسى بكثير جداً مما احتمله من يد البشر، فلئلا يجنح الفكر البشري إلى التطرف الآخر فيستصغر آلام المسيح الجسدية، بل قد وصل الأمر ببعضهم أن يتوهموا أن المسيح لم يشعر بتلك الآلام، فإن ذلك النطق الخامس للمسيح من فوق الصليب يبعد عنا هذا التصور غير الصحيح.

وليس فقط بسبب شدة الآلام الجسدية وما عاناه جسد المسيح القدوس من آلام كان إحساسه بالعطش، بل أيضاً من تأثير تعبه النفسي. يقول سليمان الحكيم «الروح المنسحقة تجفف العظم» (أم١٧:٢٢)، ويقول داود في المزمور ٣٢:٤ «تحولت رطوبتي إلى يبوسة القيظ»، فهذه الصرخة، إذاً، تعبِّر أيضاً عن عمق آلام روح المسيح في داخله.

بل إننا نتجاسر ونقول إن ثمة علاقة بين هذا النطق وآلام المسيح الكفارية. فنحن نلاحظ أن كلاً من متى ومرقس ربط بين شرب المسيح الخل قبل موته، وصرخته الرهيبة «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»، وكيف ظن الواقفون أنه ينادي إيليا ليخلصه. لكن الحقيقة أنه لم يكن ينتظر خلاص إيليا، بل هو من كان إيليا ينتظر خلاصه. إنه هو من كان يرمز إليه الثور الثاني في ١ملوك ١٨: ٣٠-٣٨ الذي سقطت عليه نار الرب وأكلته مع الحطب والحجارة والتراب، ولحست كل المياه. ولهذا فقد قال هنا «أنا عطشان».

لكن تأمل، يا أخي الحبيب، كيف تجاوب البشر مع ذلك المحب الودود! وكم كانت كراهيتهم له بغير حدود: فحتى وهو يموت يقدمون له الخل بدل الماء!

عزيزي: إنَّ جهنم، ذلك المكان المروِّع الذي سيُطرَح فيه كلُّ الخطاة غير

التائبين، يصوِّرها لنا الكتاب المقدس بأنها ظلام ووحدة وعطش. والمسيح فوق الصليب احتمل ذلك كله لأجلنا. كان نطقه السابق تعبيراً عن الظلمة والوحدة، فمن أعماق الظلمة صرخ «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»، والآن بنطقه الخامس يعبر عن العطش «أنا عطشان». وبينما السماء منعت عنه ومضة من النور، أنكرت الأرض عليه قطرة من الماء!

لا تتذمر، لو لم يكن لديك سوى الماء لتشربه، لأن سيدنا وهو يموت لم يحظ بهذه النعمة! ولا تتذمر لو كان طعم الدواء في فمك مُرّاً لأن سيدنا أعطوه قبيل موته الخل، فشربه ثم مات!

هذا ما عاناه المسيح لأجلنا. لقد تحمَّل الألم المرير والعطش القاسي ليرحمنا من العطش الأبدي. ألا تنظر الآن إلى الذي صُلِبَ من أجلك؟ هل تنظر إليه بالإيمان، ذاك الذي أحبك، أم أنك ترفضه وتمضي إلى الظلمة الأبدية والعطش الأبدي؟

والآن دعني أتحول بالحديث إلي كل متألِّم أو مُجرَّب. عزيزي، إذا كنت تجتاز في الام مريرة وتجارب قاسية، إذا كنت تعاني من جرّاء فقر مدقع وحاجة شديدة، فتَفَكَّر في المسيح الذي سبق أن جاز في أرض الشقاء، والذي جاء إلى مركز بؤسنا. إن ذاك الذي رأيناه في الصليب يصل إلى عمق الفقر ويقاسي شدة الألم، يقدر أن يرثي لنا لأنه مُجرَّب في كل شيء مثلنا بلا خطية. وفيما هو قد تألم مجرَّباً يقدر أن يعين المُجرَّبين (عب٢:١٨).

لقد سُرَّ - تبارك اسمه - بإرادة الآب، وقَبِلها، حتى لو كانت العطش الشديد. قال أحد رجال الله: "لا تتذمر، لو لم يكن لديك سوى الماء لتشربه، لأن سيدنا وهو يموت لم يحظَ بهذه النعمة"! وقال آخر: "لا تتذمر لو كان طعم الدواء في فمك مُرّاً لأن سيدنا أعطوه قبيل موته الخل، فشربه ثم مات"! نعم، لا تتذمر بل

ضَعْ الشجرة المقطوعة في وسط مرارة قلبك: ضع المسيح وهو فوق الصليب في ظروفك المحزنة المريرة، وسرعان ما ستتحول المرارة إلى حلاوة.

لكن لا يكفي ألا نتذمر، بل ليت لغتنا تكون لغة الشكر. ففي الواقع، ما أقل شكرنا! أتُرانا نفكر في كأس الماء التي نشربها لكي نشكر الله عليها؟ بل كم لدينا ما هو أكثر بكثير من كوب الماء، ومع ذلك ما أقل شكرنا! أولا يكفي التلميذ أن يكون كمعلمه، والعبد كسيده؟ لكنه في نعمته لا يسمح لنا أن نصل إلى ما وصل إليه هو من فقر واحتياج.

كمال الكتاب المقدس، وكمال عمل المخلص

كم يسعدنا أن بين أيدينا كتاب الله العظيم، الله المسيطر على كل الأمور والذي يعلم النهاية من البداية. ولقد أخبرنا الله بما سوف يحدث، وسجّله في كتابه العظيم، هذا الكتاب الذي لا يمكن أن يُنقَض المكتوب فيه على الإطلاق.

لقد تمّت كل النبوات التي تتحدث عن اتضاع الرب وآلامه في دقة عجيبة. لا في صورة روحية – كما يفتكر قوم يظنون أن نبوات الكتاب لا تُؤخذ حرفياً بل روحياً – كلا، فكل النبوات التي تتحدث عن اتضاع المسيح وآلامه تمت بحسب معناها البسيط والصريح والواضح. وإنّ نُطق المسيح الخامس من فوق الصليب ينفي تماماً فكرة روحنة النبوة. فالواقع أنه لو كانت معاني النبوة لا تُؤخذ حرفياً، بحسب معناها الحرفي والدقيق، لَمَا كان هناك لزوم لنُطق المسيح هذا على الإطلاق، لأن المسيح في كل حياته ذاق المرار وشرب الخل معنوياً. لكن النبوة التي وردت في المزمور ٢١:٦٩، مع أنها في ذاتها نبوة صغيرة، وقد تبدو في أنظارنا غير هامة، فها هنا كما في كل أمر آخر «لا يمكن أن

ينقض المكتوب» (يو ١٠:٣٥). تقول هذه النبوة بصريح العبارة «وفي عطشي يسقونني خلاً». وكان لا بد أن تتم تلك النبوة بكل دقة، بلا أدنى تجاوز أو تقريب. ولهذا جاء هذا النطق الخامس «لكي يتم الكتاب».

لعلنا نتذكر أن المسيح وُلِدَ في بيت لحم، كما تقول النبوة في ميخا ٥:٢. ولم يكن هذا الأمر ليحدث لو أن الأمور سارت في مجرياتها الطبيعية، لأن المُطوَّبة العذراء مريم كانت تسكن الجليل في شمال فلسطين. فحدث الاكتتاب العالمي (أي التعداد أو الإحصاء) بأمر الإمبراطور، وتحرك الآلاف والملايين من بلاد إلى بلاد، ولم يكن ذلك كله في حقيقة الأمر إلا لتتميم نبوة واحدة عن مكان ميلاد المسيح كان لا بد أن تتم حرفياً. وكما حدث في بداية حياته، حدث أيضاً عند الصليب حين جاء النُّطق الخامس كيما تتم إحدى النبوات عن عطشه وشربه الخل. نعم، لكي تتم حَرفياً كل النبوات من المهد إلى اللحد.

إن كلمة الله ودرج الكتاب يحدثاننا بأن المسيح كان سيعطش، وأن الناس الأردياء كانوا سيقدمون الخل له في عطشه، وكان هو سيشربه. وكان لا بد أن يتم ذلك بكل دقة. وهنا نحن لا نرى فقط دقة المكتوب، بل أيضا تقدير الرب يسوع الكامل للمكتوب. إنه هو الذي جاءت عنه النبوة «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سُررتُ، وشريعتك في وسط أحشائي» (مز ٤٠:٨). لقد كان المسيح يُقدِّر الكلمة تماماً، ويركن إليها بلا حدود: بها قاوم إبليس في التجربة في البرية عندما رد عليه ثلاث مرات «مكتوب» ففرَّ الشيطان منه. كما فعل الشيء عينه في محادثاته مع قادة الأمة من الفريسيين أو الصدوقيين. لقد ردَّ عليهم من المكتوب، وأفحمهم. وها نحن مرة أخرى، في مشهد الصليب نرى أيضاً إركانه الكليّ إلى المكتوب.

لقد كان المسيح على الصليب يعايش جوَّ الأحزان والآلام المذكورة في

المزمور ٦٩. هذا المزمور المؤثِّر الذي فيه نستمع إلى صرخات المسيح «خلِّصني يا الله، لأن المياه قد دخلت إلى نفسي. غَرِقتُ في حمأة عميقة، وليس مقر. دخلت إلى أعماق المياه، والسيل غمرني. تعبتُ من صراخي. يبس حلقي، كلَّت عيناي من انتظار إلهي، أكثر من شعر رأسي الذين يبغضونني بلا سبب. اعتزَّ مُستهلكيَّ أعدائي ظلماً. حينئذٍ رددت الذي لم أخطفه». ويستمر المزمور في وصف آلام المسيح المتنوعة إلى أن يصل إلى القول «العار قد كسر قلبي فمرضتُ، انتظرتُ رقةً فلم تكنْ، ومُعَزِّين فلم أجد. ويجعلون في طعامي علقماً» ثم أخيراً، في آخر قائمة الآلام يقول «وفي عطشي يسقونني خلاً».

إن المسيح ليس فقط لم يعمل لأجل نفسه شيئاً، بل أيضاً لم يتكلم لأجل نفسه كلمة. فحتى في أدق الخصوصيات، وألزم الضروريات، عندما عطش عطشاً شديداً فوق الصليب، لم يقل أنا عطشان إلا لكي يتم الكتاب!

ويجب أن نُميِّز بين ما سجله البشير متى في إنجيله من أنهم قدَّموا للمسيح في بداية الصليب خلاً ممزوجاً بمرار، وكانت هذه عادة يقدمون بمقتضاها للمحكوم عليهم بالصلب مادةً مُسكِرَةً تخفف قليلاً من آلامهم. والمسيح رفض أن يأخذه. يقول الوحي «لما ذاق لم يُرِد أن يشرب» (مت٢٧:٣٤). لقد ذاق مرارته لكنه رفض ابتلاعه لكي لا يؤثر على إحساساته وهو يحتمل دينونة الخطية. لكنه الآن، وبعد أن أكمل كل العمل، شرب الخل «لكي يتم الكتاب»!

ومما سبق نستنتج أن قُوى المسيح الذهنية كانت حاضرة تماماً في كل فترة الصلب، حتى أمكنه أن يرى ويعلم أن كل شيء قد كمل. لكن الأجمل من ذلك هو خضوع المسيح الكامل للمكتوب. ومع أن المسيح

كان يحس فعلاً بالعطش الشديد والرهيب، فإنّ هذا في ذاته لم يكن سبباً كافياً لأن تنطق شفتاه الطاهرتان بصرخة «أنا عطشان». كلا، بل بوصفه العبد المطيع، الذي مع كونه ابناً تعلم الطاعة مما تألم به، قد نطق بهذا النُطق، لا ليروى غليله، بل لسبب أهم جدّاً في نظره. لقد عَلِم المسيح أن كل شيء قد كمل، وأنه على وشك ترك العالم، وعليه فما كان مهماً إرواء غليله ما دام موته بات وشيكاً، بل إنه قال ما قاله «لكي يتم الكتاب».

قال رجل الله داربي: "إنّ المسيح كان شخصاً فريداً، عاش حياة لا نظير لها". فلقد لاحظ من دراسته للأناجيل أن المسيح لم يعمل عملاً واحداً لنفسه قط، بل كانت كل أعماله وكل معجزاته لأجل الآخرين. ونحن يمكننا أن نضيف أنه ليس فقط لم يعمل لأجل نفسه شيئاً، بل أيضاً لم يتكلم لأجل نفسه كلمة. فحتى في أدق الخصوصيات، وألزم الضروريات، عندما عطش عطشاً شديداً فوق الصليب، لم يقل «أنا عطشان» إلا «لكي يتم الكتاب»!

هذا بالنسبة لذلك الشخص المبارك. تُرَى ما هو الحال بالنسبة لنا؟ ما هو الكتاب المقدس بالنسبة لك أيها القارئ العزيز؟ الكتاب الذي لا يحدّثك عن خلاص نفسك فقط، بل عن شخص مخلصك أولاً وأخيراً.

هل لهذا الكتاب العظيم مكان في حياتك وقراءاتك؟ ثم إذا كنت تقرأ فيه، فكيف تقرأ؟ أتقرأه بانتظام؟ وبشغف؟ وبفهم؟ ثم إذا كنت تفهمه فهل تعيشه؟ هل تنفذ ما يقوله الله لك فيه؟ وهل ما يقرره الكتاب المقدس هو الفيصل لك في كل أمر كما كان بالنسبة للمسيح؟

ليت الرب يسوع الذي مضى إلى الصليب ليتمم مشيئة الله، والذي فوق الصليب وفي شدة العطش صرخ قائلاً: «أنا عطشان» لكي يتم الكتاب، يبارك حياتك فيمكنك أنت أيضاً أن تقول مع المرنم «دربني في سبيل وصاياك لأني

به سررتُ. أَمِلْ قلبي إلى شهاداتك، لا إلى المكسب... ثبِّتْ خطواتي في كلمتك ولا يتسلط على إثم» (مز١١٩: ٣٥، ٣٦، ١٣٣).

صرخة الإنسان المسكين، وعذابه إلى أبد الآبدين

هذه العبارة الصغيرة والعميقة «أنا عطشان» ترينا أن المسيح – تبارك اسمه – قَبِل أن يأخذ مكاننا فوق الصليب. كان بيلاطس البنطي قد قال، مشيراً إلى المسيح، قبيل الحكم بصلبه مباشرة «هوذا الإنسان»، وها المسيح هنا كأنه يجيب عليه بالقول «أنا عطشان»، فهذه هي بحق صرخة البشرية جمعاء. ومن كان بوسعه أن يروي غليل البشرية سوى المسيح ابن الله الذي افتقر من أجلنا وهو غني لكي نستغني نحن بفقره (٢كو٨: ٩)؟ ذاك الذي قَبِل أن يصير عطشاناً ليروي عطشنا الأبدي. لقد عبَّر المسيح عن هذه الحقيقة في أيام جسده عندما قال للمرأة السامرية في يوحنا٤: ١٠ «لو كنت تعلمين عطية الله، ومن هو الذي يقول لك أعطيني لأشرب، لطلبت أنت منه فأعطاك ماء حيا». وكأن الرب يقول للسامرية: لو علمت حقيقة هذا الشخص الذي أمامك، وكم افتقر وكم تكلف حتى يبدو أمامك رجلاً متعباً محتاجاً إلى قليل ماء، لو علمت هذا فإنك يقيناً كنت تطلبين الماء منه فوراً، وكان هو يعطيك إياه في الحال.

لقد كانت هذه المرأة تمثِّل البشرية في بؤسها وبحثها عما يروي الغليل تحت الشمس. لقد سعت وراء الملذات والشهوات. قال لها المسيح «كان لك خمسة أزواج والذي لك الآن ليس هو زوجك». فهل استطاعت هذه الأمور أن تروي تلك النفس البائسة؟ كلا، بل زادتها عطشاً «كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً»، أي يزداد عطشاً. وكما كانت المرأة السامرية أيام المسيح هكذا الملايين

اليوم يجرون وراء اللذة الوقتية والمتعة العرضية، لكن ما زالت البئر عميقة فمن أين للإنسان الماء المروي؟ يقولون إن الحاجة أم الاختراع، فإذا كان هذا صحيحاً، فكم عالم اليوم باختراعاته التي لا تنتهي يحكم على نفسه بأنه يزداد احتياجاً يوماً بعد يوم؟ إن هذه الاختراعات تؤكد حاجة الإنسان لكنها لا تسدها، فلو كان بوسع هذه الأمور أن تسعد الإنسان لما تكلف ابن الله هذه الكلفة الرهيبة، ولما افتقر هذا الفقر الشديد كيما يهبنا الماء الحي. قال المرنم قديماً «عطشت نفسي إلى الله، إلى الإله الحي». وهو عين ما عبر عنه أحد القديسين القدماء عندما قال: "لقد خلقتنا يا الله لذاتك، ولن نجد سعادتنا بعيداً عنك". حقاً لا شخص، ولا جهاز، ولا عقيدة يمكن بحق أن يروي ظمأ النفس الأبدي، أو يريح القلب. هناك شخص واحد فقط، ابن الله الذي قال عنه المرنم:

سمعتُ صوتَه يذيعُ القولَ إعلانا
ماءُ الحياةِ إنني أعطيه مجانا

تعالَ يا عطشانُ واشربْ واغنم الحياهْ
فجئته حالاً وقد شربتُ من مَجْراه

فجئته كما أنا ذا حَزَنٍ مُتعَبْ
فتمَ لي من بهجتي وراحتي المطلبْ

هل تشعر أيها القارئ العزيز بالعطش، ولا تجد في هذا العالم ما يروي عطش نفسك؟ إن ابن الله الكريم قد جاء إلى هذا العالم البائس ليخلص الخطاة. وأنت إن أتيت بالإيمان فسيُشبع جوعك الروحي ويروي ظمأك. فلقد قال بفمه الكريم «من يُقبِل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» (يو٦: ٣٥).

وخطية الإنسان وبعده عن الله لم ينتج عنهما مجرد العطش في هذه الحياة، بل إن في انتظاره ما هو أمرّ وأنكى، في انتظاره أبدية بلا نهاية سيكون نصيبه فيها العطش الأبدي الرهيب. لقد ذكرنا في ما سبق أن المسيح أتى ليشاركنا في بؤسنا كيما يمكنه أن يرثي لنا في ظروفنا ليقدر أن يعين المجربين. ونضيف الآن أنه أيضاً أتى إلى العالم ليعالج المشكلة ويجتث جذورها. ولهذا فقد ذهب إلى الصليب، بل عطش أيضاً - تبارك اسمه - ليعفينا من العطش الأبدي. ففي حياته شاركنا الألم، وفي موته اقتلع جذور المشكلة.

* * * *

لقد عبّرت صرخة المسيح السابقة «إلهي إلهي لماذا تركتني؟» عن آلام نفسه، لكن هذه الصرخة «أنا عطشان» تعبر عن آلام جسده. وذلك لأن الخطية في أجرتها لا تنحصر في النفس وحدها، ولا في الجسد وحسب، بل في كليهما. لقد قال المسيح مرة «خافوا بالحري من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم» (مت١٠: ٢٨). ولهذا فقد احتمل المسيح لأجلنا العذاب في نفسه وجسده.

ولهذا فقد ذهب إلى الصليب، بل عطش أيضاً - تبارك اسمه - ليعفينا من العطش الأبدي. ففي حياته شاركنا الألم، وفي موته اقتلع جذور المشكلة.

إن صرخة الرجل الغني في الهاوية، بل طلبته الوحيدة فيها، عندما رأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه، هي «يا أبي إبراهيم، ارحمني، وأرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بماء ويبرد لساني، لأني معذب في هذا اللهيب» (لو١٦: ٢٤). ومع تفاهة الطلب وتواضعه جداً، فإنه لم يُعطَ لذاك الذي كان يوماً غنياً. لماذا إذاً لا تأتي إلى المسيح الذي يعطي الماء الحي، والذي قبلَ أن يعطش وهو فوق الصليب ليرويك؟!

مرة تهكم ملحد كان يعشق الخمر، تهكم بالسماء وسكانها، فقال أمام أحد المؤمنين: "أنا لا أريد أن أذهب إلى سمائكم التي ليس فيها خمر". أجابه المؤمن : "لكن تذكر أن جهنم ليس فيها ماء"!

نعم لقد أدخلت الخطية العطش إلى الإنسان. لكن المسيح أتى بهذا النداء الحلو في يوحنا ٧ «إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب». لكنه هنا، وهو في مكان الخطاة على الصليب، ها هو بنفسه يصرخ «أنا عطشان» كبرهان على أنه أخذ مكان الخطاة وتحمل أجرة الخطية ونتيجتها.

أما بالنسبة للمؤمنين فما أسعد حاضرهم وما أمجد مستقبلهم. الآن جعل الرب سروراً في قلوبنا أعظم من سرورهم، إذ كثرت حنطتهم وخمرهم. أما المستقبل فما أمجد ما سنتمتع به عن قريب عندما يأتي ربنا ثانية ليأخذنا إليه وليكمل عمل الفداء.

أيها السائحُ ماذا أنت راجٍ في النعيمْ
إكليلَ برٍّ مجيدٍ من يدِ الفادي الكريمْ
والثيابَ البيضَ تكسو كلَّ من نالَ الفِدا
حيث نهرُ الروضِ صافٍ يرتوي منه الظما

الآن هنا أنهار مياه حية تجري من بطن المؤمن بالمسيح، لكن هناك ينتظرنا نهر من ماء حياة لامعاً كبلور. هذا كله ينتظر فقراء هذا العالم وظمأى هذه الأرض، لكن ذلك الغِنى العجيب والتمتع الأبدي ليس بالانفصال عن الأحزان والآلام التي عاناها مَنْ قَبِلَ من فوق الصليب أن يصرخ لأجلنا قائلاً: «أنا عطشان».

عطش المسيح في ذلك اليوم، وإلى اليوم

تُرى ما الذي نقصده بعطش المسيح في ذلك اليوم؟ إلى أي شيء كان المسيح عطشاناً في يوم صلبه؟ مع أننا نؤكد أن المسيح كان فعلاً عطشاناً جسدياً للماء الطبيعي، كما ذكرنا قبلاً، فإننا أيضاً نعتقد أن لهذه العبارة بُعداً أكبر من مجرد العطش الجسدي. فهي تعني بالإضافة إلى ذلك شيئين على الأقل:

١- العطش إلى الله

٢- العطش إلى إكمال عمل الفداء .

ماذا نقصد بعطش المسيح إلى الله؟ لقد نطق المسيح بعبارة «أنا عطشان» بعد صرخته المرة «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟». فتَرك الله له مدة ثلاث ساعات كاملة جعله يحس بالعطش الشديد. لقد كان لسان حاله ما جاء في المزمور ١٤٣: ٦ «بسطت إليك يديَّ. نفسي نحوك كأرض يابسة»، وأيضاً ما جاء في المزمور٤٢: ١-٣ «كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله. عطشت نفسي إلى الله، إلى الإله الحي، متى أجيء وأتراءى قدام الله... إذ قيل لي كل يوم: أين إلهك؟». لهذا فبعد هذه الصرخة مباشرة قال «قد أُكمل»، ثم «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». نعم لم تكن تلك الصرخة فقط صرخة جسده المحتاج إلى الماء، بل بالحري صرخة نفسه المشتاقة إلى الله!

وماذا نعني بالعطش إلى إكمال الفداء؟ لقد عبّرت صرخة المسيح «أنا عطشان» عن اشتياقه ورغبة قلبه لإتمام عمل الفداء. هذا الاشتياق الذي عبّر عنه مرة لتلاميذه بالقول «لي صبغة أصطبغها (مشيراً إلى آلام موت الصليب) وكيف أنحصر حتى تكمل» (لو١٢: ٥٠)؛ أو كم أنا محصور حتى تكمل تلك الآلام. وها هنا المسيح تبارك اسمه في نهاية مشوار الألم، وقد رأى أن كل

شيء قد كمل، قال «أنا عطشان»، أي أنا عطشان لإتمام النبوة الصغيرة الباقية ولإكمال عمل الفداء. وبعدئذ قال «قد أكمل». ويعلق الرسول بولس على ذلك بالقول «رئيس الإيمان ومكمله يسوع، الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي» (عب١٢: ٢). نعم، فلقد كان السرور الذي أمامه أن يكمل عمل الفداء، كيما يأتي بأبناء كثيرين إلى المجد.

لكن ذاك الذي كان عطشاناً في ذلك اليوم ما زال إلى اليوم عطشانَ. وهو أيضاً عطشان إلى أمرين رئيسيين.

أولا: إنه **عطشان إلى النفوس الهالكة المائتة**. فذاك الذي عطش ليرحمنا من العطش الأبدي، وبعمله هذا أدخل إلى قلوب الملايين من المؤمنين تعطشاً حقيقياً إليه، ما زال متعطشاً إلى النفوس، يريد أن ينظر الكثيرون من المساكين والتعساء إلى صليبه فيغمرهم الارتواء الأبدي. وهو عين ما نقرأه في يوحنا ٤ يوم تقابله مع المرأة السامرية. فلقد قال لها أعطيني لأشرب. ونحن لا نقرأ في الأصحاح أنها أعطته الماء الحرفي، بل أعطته قلبها البائس وحياتها الضائعة ونفسها المعذبة القلقة فأسعدها، وارتوى لما أرواها.

إلى هذا ما زال المسيح عطشاناً. إنه عطشان لخلاص الخاطئ. فهل نبادر بأن نقدم تلك النفوس الغالية إليه؟! لا عجب أن المسيح يوم لقائه بالسامرية قال لتلاميذه «ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول إنها قد ابيضت للحصاد... لكي يفرح الزارع والحاصد معاً» (يو٤: ٣٥،٣٦).

لكنه أيضا عطشان إلى **تكريس المؤمنين**، أولئك الذين من أجلهم عطش وهو على الصليب. نعم إنه ما زال عطشانَ إلى محبتهم وعبادتهم وخدمتهم له! أفلا يستحق ذلك المجيد أن نشق لأجله محلة الأعداء ونستقي له الماء (٢صم٢٣: ١٥،١٦)؟ وإن كان أبطال داود فعلوا لك قديماً مع مليكهم، أفلا

يستحق سيدنا أكثر؟

ليس ذلك فحسب، بل ويا للعجب، ففي يوم قادم سيسمع فريق من المؤمنين هذه العبارة من فم سيدنا «إني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني» وهم إذ يندهشون من هذه العبارات ويقولون له باستغراب «يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاناً فسقيناك؟...» يجيب عليهم قائلاً «الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم» (مت٢٥: ٣٤-٤٠). ومن هذا نتعلم أنه حيث إخوةٌ للمسيح في حاجة إلى مد يد المعونة والإسعاف، لتخفيف آلامهم ولمساعدتهم على تحمل النوائب التي تحل عليهم، فهناك يسوع في همساتهم الضعيفة المتهالكة يقول «أنا عطشان».

* * * *

وفي الختام أقول: ذلك الذي تعب لأجلنا، وعطش، ومات وهو عطشان، ألا يستحق أن نأتي إليه بصادق الحب، ونعطيه لا فضلة الحب بل أفضله؟ ألا يستحق أن نعطيه المحبة الأولى، كيما يرى من تعب نفسه ويشبع؟! سيتم ذلك حتماً عن قريب على أكمل وجه، عندما يأتي لأخذ قديسيه وكنيسته إليه فيجتمع حوله في السماء الملايين التي لا تُحصى من المفديين، يشربون من نهر الحياة الخارج من عرش الله والخروف. نعم عندئذ سيتحقق القصد النهائي من الفداء ومن الصليب ومن صرخته الغالية على قلوبنا «أنا عطشان». لكن ليتنا نحرص على ذلك من الآن.

العبارة السادسة من فوق الصليب

كلمة الانتصار

بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل، فلكي يتم الكتاب قال: أنا عطشان. وكان إناء موضوعاً مملوءاً خلاً، فملأوا إسفنجة من الخل، ووضعوها على زوفا، وقدموها إلى فمه. فلمَّا أخذ يسوع الخل قال:

قد أُكْمِلَ

(يو١٩: ٢٨-٣٠)

لقد وصلنا الآن، ونحن نتتبع عبارات المسيح السبع التي نطق بها - له المجد - من فوق الصليب، إلى العبارة السادسة، تلك العبارة القصيرة والعظيمة الواردة في إنجيل يوحنا ١٩ «قد أُكمِل». وفي الواقع أننا مهما تكلمنا عن هذه العبارة فلن نفيها حقها، ومهما أسهبنا في شرحها ففي النهاية لن يكون حديثنا عنها قد أُكمل. فهذه العبارة هي باللغة الأصلية للعهد الجديد (اللغة اليونانية) مكونة من كلمة واحدة تُنطَق "تيتيليستاي". وهي بكل يقين أعظم كلمة مفردة نطق بها إنسان، أو سمعتها الآذان. هذه الكلمة الواحدة هي مثل القطرة لكنها تحتوي على المحيط. فإننا نحتاج إلى كل مفردات اللغة لشرحها، وإزاءها نشعر أننا أمام بحر من الأسرار لا يمكننا عبوره. وكل ما نستطيعه هو أن نقف على شاطئه نتأمل أسراره من بعيد، ونستمع إلى هدير أمواجه. ومع أن المفسرين حاولوا، على مدى التسعة عشر قرناً الماضية، شرح تلك الكلمة الواحدة، وكل منهم أدلى بدلائه واستقى، لكن النبع نفسه ظل فائضاً كما كان. ولا عجب، لأن كلمة كهذه «قد أُكمل»، من شخص كهذا: حمل الله الكريم، وفي مناسبة كهذه: آخر لحظاته من فوق الصليب، لا بد أنها تحتوي على أعماق تفوق إدراك البشر، وتعني أشياء مغروسة في قلب اللاهوت لا يقدر الذكاء البشري بلوغ مداه. والأبدية وحدها ستكون المجال لفهم الكثير من معنى هذه العبارة السادسة للمسيح من فوق الصليب «قد أُكمل».

ونبدأ حديثنا عن هذه الكلمة بالإشارة إلى:

أولاً: مدلول كلمة «قد أُكمل»

يقول العارفون بعادات ذلك الزمان ولغته إن هذه العبارة "تيتيليستاي" كان يقولها الخادم بعد أن يُكمل العمل الذي كلفه إياه سيده. وكان يقولها التاجر بعد أن يسدّ الفواتير والكمبيالات التي ينبغي سدادها. وكان يقولها أيضاً الفنان بعد أن يضع لمساته الأخيرة على عمله الفني، كما كان يقولها القائد الظافر في معركته وهو يسير في موكب النصر. هكذا هنا فوق الصليب، قال عبارة "تيتيليستاي" الخادم الكامل، والتاجر العظيم، والفنان الحقيقي، والمحارب المظفّر. الخادم الذي تمم كل مشيئة الله، والتاجر الذي سدّ كل ديون مفدييه، والفنان الذي أكمل عمل الخلاص العظيم، والمحارب الذي هزم الشيطان وسحق رأس الحية.

«قد أُكمل»: إنه أعظم وأخطر إعلان سمعه إنسان منذ بدء الخليقة. فالذي أكمله ربنا يسوع المسيح كثير، بل كثير جداً. لقد أكمل عمل الفداء، وأنهى خطة المصالحة من وجهة نظر الله، ووضع أساس إنجاز كل مشورات الله الصالحة، وفيه تمت كل النبوات عن آلامه، وهو الذي قام بسداد كل الديون. والأرجح أن المسيح قال كلمته هذه "تيتيليستاي" بصوت عظيم، مثل كلمته السابقة «أنا عطشان»، واللاحقة «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». فهذه الكلمة - كما سنرى - لم تكن أبداً أنّة ضعف وخوَر، بل كانت صيحة غلبة وظَفَر.

لم يقل المسيح هنا: أنا انتهيت، بل أنا أنهيت. بل أكثر من ذلك، أنا أكملت: أكملت عملاً مُتقَناً دون أن أبقي فيه شيئاً ناقصاً على الإطلاق. عندما يموت الإنسان ينتهي، وتهلك أفكاره ومشروعاته معه (مز١٤٦: ٤). لكن المسيح بموته كان ينجز أعظم المشروعات على الإطلاق، كان يضع الأساس

الراسخ لكل مشروعات الله وقصد الدهور.

هذه العبارة تمثل النُطق السادس للمسيح من فوق الصليب. ونحن نعرف أن الرقم ٦ هو رقم العمل. ففي ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها (خر٢٠:١١)، وفي ست ساعات أكمل عمل الفداء، وكان ذلك أيضاً في اليوم السادس من الأسبوع، يوم الجمعة. وها هو من فوق الصليب في نطقه السادس يقول «قد أكمل».

كثيرون، عندما أتت لحظة موتهم، نظروا إلى ماضيهم وتأملوا ما تمموه في حياتهم بالمقابلة مع ما كانوا ينوون أن يفعلوه، فامتلأوا بالأسى والأسف، وكأنهم يقولون: "ما أعظم ما كنت أود أن أفعل، وما أقل ما أنجزته بالفعل". أما المسيح فليس هكذا. وحتى لو كان هؤلاء أنجزوا كل ما كانوا يتمنون، ذاك الذي لأجله أوقفوا حياتهم كلها، وكانوا بذلك قد أضافوا إلى رقعة المعرفة مساحة جديدة، أو وطئوا بأقدامهم أرضاً جديدة، فما قيمة هذا كله بالمقابلة مع ذلك العمل الذي أتمه ابن الله* من فوق الصليب؟

مرة قال نحميا: «أنا عامل عملاً عظيماً، فلا أقدر أن أنزل» (نح٦:٣)، لكن الذي كان يعمل العمل العظيم بكل معنى الكلمة هو المسيح، ولم ينزل فعلاً، لم ينزل من على الصليب إلا بعد أن أتمه. نعم لقد أكمل المسيح العمل العسير الذي أمامه يعتبر خلق السماوات والأرض شيئاً أيسر بكثير. فخلْق الكل كان بمجرد أمر وكلمة «بكلمة الرب صُنِعَت السماوات، وبنسمة فيه كل جنودها» (مز ٦:٣٣)، أما مصالحة الكل فاستلزمت دم الصليب. نعم، لقد أكمل المسيح العمل الذي لأجله أخذ صورة عبد، والذي لأجله تجسَّد، ولأجله عاش فوق الأرض أكثر

* لا غرابة في أن هذه الكلمة لم تَرِد إلا في إنجيل يوحنا فقط الذي هو إنجيل ابن الله، فمن سوى الكلمة الأزلي الذي صار جسداً وحل بيننا، يقدر أن ينطق بمثلها؟!

من ثلاث وثلاثين سنة، ولأجله قضى فوق الصليب ست ساعات كاملة. ها هنا – تبارك اسمه – وقد أكمل العمل يصرخ قائلاً «قد أُكمِل*».

ثانياً : أدلة كمال عمل المسيح

يمكننا أن نتتبع عدة أدلة لكمال عمل المخلص من فوق الصليب، وهي أدلة فورية وقوية وأبدية كالآتي:

الأدلة الفورية: وهي أدلة منظورة ومحسوسة. فنحن نعرف أنه عندما كان المسيح معلّقا فوق الصليب حدثت ظلمة معجزية فوق الأرض كلها. ومثا إن صرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح حتى انقشع الظلام الذي خيم بغتة على الأرض، وملأ الكون الضياء. وهذا يدل على أن المسيح، الذي كان متروكاً من الله، قد أنهى العمل وأنجز المهمة. لكن ليس فقط عاد الضياء، بل حدث شيء آخر، أعني به الزلزلة التي شقّقت الصخور، وفتّحت القبور، بل

* يوحنا الذي ذكر كلمة «قد أكمِل» في إنجيله، أشار أيضاً مرتين في سفر الرؤيا إلى عبارة مشابهة (لكنها ليست الكلمة عينها) وهي عبارة «قد تم». المرة الأولى في رؤيا ١٦: ١٧، مع هذا الفارق أن عبارة رؤيا ١٦ تتحدث عن الدينونة التي ستقع على العالم الأثيم المذنب، أما في الإنجيل فتشير إلى الدينونة التي احتملها ابن الله. ومع خطورة الدينونة التي ستقع على الأشرار، لكنها لا تُقارن بتلك التي احتملها المسيح على الصليب، عندما كان يتعامل مع الخطية أصلاً وفرعاً.

والمرة الثانية في رؤيا ٢١: ٦، وذلك بالارتباط بوصول الله إلى غايته من مشروع الفداء، فلقد تم إبطال كل الأعداء، وكان آخر عدو يُبطَل هو الموت. ولقد مضت السماء الأولى والأرض الأولى، وحل محلهما سماء جديدة وأرض جديدة. ولقد وصلت عروس المسيح إلى عريسها، وشاهد الرائي «مسكن الله مع الناس». بعد هذا كله قال الجالس على العرش: «قد تم». نعم سيُنهي الله حتماً ما قصده في الأزل، لكن في الصليب وضع المسيح الأساس الراسخ لهذا كله.

أيضاً قام كثير من أجساد القديسين الراقدين، معلنة نصرة المسيح على الموت، عدو البشرية الأول. فكأن الله لم يسمح أن يدخل المسيح إلى القبر إلا بعد أن يعلن أولاً نصرة المسيح على الموت وعلى القبر.

الأدلة القوية: وهي ليست أدلة في العالم الطبيعي، كعودة النور وتشقق الصخور وتفتح القبور، ولا هي أدلة في العالم غير المنظور، مثل دليل قيامة كثير من أجساد القديسين، بل إنه دليل في العالم الروحي والديني، إذ انشق حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق إلى أسفل. ويا له من دليل قوي! فذلك الحجاب، الذي كان طوال العهد الأول يعلن لكل من يريد الاقتراب إلى الله أنْ "ممنوع الدخول"، قد انشق إلى اثنين مُعلناً ترحيب الله بالخاطئ التائب، فإذ كُمِّل رئيس خلاصنا بالآلام فقد أمكن أن يأتي الله بأبناء كثيرين إلى محضره.

ذلك الحجاب، الذي كان طوال العهد الأول يعلن لكل من يريد الاقتراب إلى الله أنْ "ممنوع الدخول"، قد انشق إلى اثنين مُعلناً ترحيب الله بالخاطئ التائب، فإن كُمِّل رئيس خلاصنا بالآلام فقد أمكن أن يأتي الله بأبناء كثيرين إلى محضره.

الأدلة الأبدية: وهي بكل يقين أقوى هذه الأدلة جميعها، وأعني بها قيامة المسيح من الأموات في اليوم الثالث. إن هذه القيامة تعلن أن الله قَبِل المسيح وارتضى بعمله؛ وإلا فكيف قام المسيح من الأموات لو أن المسيح لم يكن قد أوفى كل الدين؟

وليس فقط قام المسيح من الأموات، بل إنه صعد إلى السماء، وتمجد إذ جلس عن يمين الله في الأعالي، ومن هناك أرسل الروح القدس إلى العالم ليسكن في قلوب المؤمنين به.

ثالثاً: مضمون كمال عمل المسيح

دعنا الآن – بشيء من التفصيل – نتأمل في مضمون كمال عمل المسيح من فوق الصليب. أو – بكلمات أخرى – دعنا نتأمل في ما هو الذي أكمله المسيح من فوق الصليب، ولنتتبع ذلك في السباعية التالية:

الأمر الأول: إتمام مشيئة الله

إن أول شيء أكمله المسيح من فوق الصليب هو **مشيئة الله**. فلقد قام – تبارك اسمه – بتنفيذ خطة الله الأزلية ومقاصد نعمته من نحو الإنسان المسكين الخاطئ.

يقول الرسول بولس «لأن مهما كانت مواعيد الله، فهو (أي المسيح) فيه النَّعم، وفيه الآمين، لمجد الله، بواسطتنا» (٢كو ١: ٢٠). هذه الآية معناها أنه مهما أراد الله أن يعمله تجاهنا، ومهما كانت مواعيد الله من نحونا، فإن المسيح من جانبه يقول نعم، فالمسيح لا يقول مطلقاً «صَعَّبتَ السؤال» مهما عظم الطلب أو ارتفع إلى فوق. في الأزل، قبل خلق العالمين، قال المسيح لأبيه "نعم"، «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سُررتُ». ومن ثم فقد أتى إلى العالم ليفعل مشيئة الله، وليفعلها بسرور. لكن لنلاحظ أنه ليس فقط فيه النَّعم، لأننا نحن أيضاً قد نقول "نعم" في بعض الأحيان، دون أن نفعل شيئاً. مثل ذلك الابن الذي حدثنا عنه المسيح في متى ٢١: ٣٠، الذي قال له أبوه «اذهب اليوم اعمل في كرمي»، أجابه الابن «ها أنا»، لكن لم يعمل شيئاً. أما المسيح فليس هكذا، بل إنه عندما يتسلم الأمر تكون إجابته "نعم، أنا مستعد للقيام بالمأمورية"، ثم يقوم بالتنفيذ، ولا يهدأ حتى يتمم الأمر، وعندئذ يقول "آمين". إنه هو الذي

جاءت عنه النبوة في إشعياء ٥٣: ١٠ «ومسرة الرب بيده تنجح». ولهذا فها المسيح من فوق الصليب يقدم التقرير «قد أُكمِل». وكأنه يقول "إن ما قصدتَه أيها الآب لي في الأزل كي أفعله، والذي أعلنتُ من فوق الجبل المقدس وأنا مع موسى وإيليا أني سأكمله (لو٩: ٣٠،٣١)، كما أكدتُ في بستان جثسيماني كامل استعدادي لإتمامه (يو١٨: ١١)، ها أنا قد فعلته وأكملته".

ما أبعد الفارق بين ربنا يسوع المسيح والإنسان الأول آدم، فبينما فشل الإنسان الأول في تنفيذ مشيئة الله في وصية واحدة سهلة، فإن المسيح، الإنسان الثاني، كان سروره أن يفعل مشيئة الله حتى إلى الموت!

لقد سبق أن كُلِّفَ المسيح مأمورية الخلق، فخلق الكل، كما يخبرنا تكوين ١. وفي تكوين ٢ يقول الوحي: «أُكمِلَت السماوات والأرض». «ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً»، ثم «استراح الله»، بمعنى: سُرَّ وابتهج بما فعله. لكن من تكوين ٢:٣ حتى يوحنا ١٩:٣٠ لا نقرأ مطلقاً عن عمل كامل. فأعمال كثيرة عملها البشر لا يُقال عنها مطلقاً إنها كاملة. فكم من أعمال بدأها البشر ولم يكملوها، أو بدأوها حسناً وأنهوها سيئاً. هناك من بدأ في بناء برج ولم يقدر أن يكمله. لكن المسيح ليس هكذا، فلقد قال «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو٤:٣٤).

لقد قَبِلَ – له المجد – أن يموت لأجلنا، و«بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المُقدَّسين» (عب١٠:١٤). ولو كانت مشيئة الله هلاكنا فما كان أسهل ذلك بالنسبة لله. لكن مجداً لله، لأن مشيئته كانت فداءنا من الهلاك على أساس من العدل، فجاء المسيح وأكمل العمل. وعندما دخل المسيح إلى العالم كان في تمام العلم بما كان حتماً عليه أن يعمله، ولذلك فقد قال «هنذا أجيء لأفعل مشيئتك يا الله» (انظر عب١٠:٥-٩). وها هو الآن عند خروجه من العالم يعلن، من فوق

الصليب، أنه قد أكمل العمل ونفَّذ مشيئة الله في خلاصنا. لقد ذكر قبلاً أن طعامه هو أن يعمل مشيئة الذي أرسله ويتمم عمله، وها هو قد عمل تلك المشيئة وأتمَّها، فما أسعده بهذا! لقد شبع بهذا كل الشبع، وبلغة الرمز: «أكل وشرب وطاب قلبه، ودخل ليضطجع في طرف العرمة» (را ٣:٧). فله كل المجد.

الأمر الثاني: إعلان الله وصفاته

فهذه العبارة العظيمة، موضوع دراستنا وتأملنا الآن، وردت في إنجيل واحد من الأناجيل الأربعة، هو إنجيل يوحنا. وإنجيل يوحنا يتميز عن باقي الأناجيل في أنه يُركِّز الحديث على لاهوت المسيح، فيقول عنه - من بدايته - إنه الكلمة الأزلي الخالق، والابن الوحيد، وحيد الآب. مكتوب في يوحنا ١٨:١ «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر».

بموت الصليب، أعلن المسيح لنا محبة الله، وكل صفاته. ولهذا أمكنه من فوق الصليب أن يقول قد أكمل. لقد أكمل الغرض العظيم لمجيئه، وهو أن يُظهر اسم الآب للناس، ويخبرنا عن الله.

مَنْ منْ الأنبياء أمكنه أن يعلن الآب؟ لا أحد أمكنه أن يعلنه، ولا حتى أن يراه. لا موسى، ولا إيليا، ولا أيٍ واحد من قديسي أو أنبياء العهد القديم، بل إنَّ من أعلن الآب لنا هو ابن الله الوحيد، ابن محبته. لولا المسيح لظلَّ الله بالنسبة لنا يسكن في الضباب (١مل١٢:٨) بحسب تعبير الملك سليمان، وما كان لأحد من البشر أن يعرف مَن هو الله بالحقيقة. عندما تجاسر موسى وطلب إلى الله أن يريه مجده قال له الله «الإنسان لا يراني ويعيش» (خر٢٠:٣٣). أما بالنسبة لنا، فما كان مستحيلاً على موسى نفسه، وعلى كل مؤمني العهد القديم، صار ممكناً لنا، كقول الكتاب

«الله الذي قال أن يشرق نورٌ من ظلمةٍ، هو الذي أشرق في قلوبنا، لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح» (٢كو٤:٦). ولمّا قال فيلبس للمسيح «أرِنا الآب وكفانا» أجابه المسيح «أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس. الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤:٨، ٩)، وذلك لأنه «هو صورة الله غير المنظور» (كو١:١٥).

لكن لكي تظهر محبة الله في كل قوتها ووضوحها كان الأمر يتطلب – لا حياة المسيح فقط – بل موته لأجلنا أيضاً. مكتوب «الله بيَّن محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو٥:٨). ويقول الرسول يوحنا «بهذا أُظهِرت محبة الله فينا (تجاهنا): أنَّ الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به» (١يو٤:٩).

بهذا العمل، أعني موت الصليب، أعلن المسيحُ لنا محبةَ الله، وكلَّ صفاته. ولهذا أمكنه من فوق الصليب أن يقول «قد أُكمِل». لقد أكمل الغرض العظيم لمجيئه، وهو أن يُظهِر اسمَ الآب للناس، ويخبرنا عن الله.

ولهذا فإنه يمكننا أن نقول إنه بغير المسيح لا يمكن لأحد أن يعرف الله. قد يعرف الإنسان عن الله أشياء، أمَّا أن يعرف الله شخصياً فإنه مستحيل تماماً بغير المسيح، لأن المسيح هو كلمة الله، والكلمة لغةً هي التي تعبر عن الشخص. فالمُعبِّر عن الله هو المسيح، لهذا قال المسيح «أنا هو الطريق والحق والحياة، ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو١٤:٦). بل إني أقول أيضاً إنه بدون الصليب لا توجد معرفة حقيقية لله. فكيف يمكن للخاطئ الأثيم أن يلتقي الله الكلي القداسة؟ إما أن يلتقي الإنسان الخاطئ اللهَ القدوس عند صليب ربنا يسوع المسيح، فينعم بالغفران والمُصالحة، وإما أن يلتقي الله أمام العرش العظيم الأبيض لكي يدينه على أساس العدل. وفي الحالتين يكون

الالتقاء مع المسيح. فالمسيح هو اليوم المخلِّص، وليس بأحد غيره الخلاص (أع٤:١٢)، وهو غداً الديان، والآب قد أعطى كل الدينونة للابن (يو٥:٢٢). أنه يُخلِّص كلَّ نفس تأتي إليه اليوم، وسيدين كل نفس تأبى ذلك، غداً.

الأمر الثالث: إكمال النصرة على كل الأعداء

فهمنا أن صرخة المسيح "تيتيليستاي" هي صرخة القائد الذي أحرز الانتصار. فلقد كانت هناك معركة حقيقية في الصليب، هي معركة الدهور العُظمى، المعركة التي كانت موقعتها الأولى في الجنة عندما هزم الشيطان أبانا الأول آدم وقاده إلى عصيان الله، فطُرد الإنسان من الجنة. لكن ها قد أتى الإنسان الثاني، الرب يسوع المسيح، ودخل المعركة إنساناً، ولحساب الإنسان، وهزم الشيطان لحسابنا، فهو المُتَنَبَّأ عنه في الجنة بأنه نسل المرأة الذي يسحق رأس الحية (تك٣:١٥). ولهذا فقد جاء المسيح باعتباره نسل المرأة، ووُلِدَ من العذراء مريم. وفي الجلجثة استطاع أن يسحق رأس الحية تتميماً للقول «هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه». فها ابن الله تغطيه الجراح، وها هو في طريقه لأن يسكب للموت نفسه، لكنه قَبِلَ الموت طوعاً لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس. وفيه تمت كلمات الرسول أنه «جرَّد الرياسات والسلاطين (أي قوى الشيطان كلها) أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه (أي في الصليب)» (كو٢:١٥).

إذاً فنحن أيضاً، مع أحد الشيوخ المذكورين في سفر الرؤيا، نقول «قد غلب الأسد الذي من سبط يهوذا» (رؤ٥:٥). وعندما قال المسيح «قد أُكمِل» كان بهذا يهتف هتاف الانتصار، عكس ما يبدو للعيان في ذلك اليوم. فمع أن الشيطان بدا وكأنه في قمة نصرته عند الصليب، فإن الصليب كان لإبادته تماماً.

والخصـــمُ قـــد ظـــنَّ بأنـــــه ظَفَـــــــرْ
إذ دُفِـنَ الــربُّ يســـوع وخُتِـــــمَ الحجــــرْ

فخـــابتِ الآمـــــالْ فـــي ظـــاهرِ الأمـــرِ
لكــن رئيـــسَ الحيــاة قـــامَ مـــن القـــبرِ

صحيح أنه إلى الآن لم تتم إبادة الشيطان، فما زالت حكمة الله ترى الإبقـاء عليه، وما زال هناك استخدام له، لكن صحيح أيضاً أن المسيح في الصليب قـد وضع أساس إبادته، كما هو مكتوب «لكي يبيد بالموت ذاك الذي لـه سلطان الموت؛ أي إبليس» (عب٢:١٤).

الأمر الرابع: إكمال الناموس ومطاليبه

لقد قال المسيح في عظته الشهيرة من فوق الجبل «لا تظنـوا أنـي جئـت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل» (مت٥:١٧). ونحـن لا نفهم من هذه الآية أن المسيح أتى ليكمل الناموس بمعنـى أن يضيف إليـه بعض الإضافات، وكأن الناموس كان ناقصاً، حاشا! فداود النبي، في المزمـور ١٩، يقول «ناموس الرب كامل». وحاشـا أن يقصـد المسـيح أن النـاموس ناقص، كلا! فالمسيح أتى، لا ليضيف شيئاً إلى الناموس، بل لكي يتمـم حكـم الناموس ويكمل مطاليبه العادلة. فلقد أعلن الناموس أن المذنب يجب أن يُـدان، وأن الله لا يمكن أن يبرر الأثيم، فأتى المسيح ليخلّصنا، لكن ليس علـى أسـاس نقض الناموس، بل على أساس أن يدفع هو بنفسه عقوبة الخطية حسب نـاموس الله. الناموس كان يُوجِب اللعنة على كل من لا يعمل به، فأتى المسيح ليمـوت فوق الصليب موت اللعنة، ليحمل عن مفدييه اللعنة التي كانوا عدلاً يسـتحقونها، كقول الرسول «المسيح افتدانا من لعنـة النـاموس إذ صـار لعنـة لأجلنـا»

(غل٣:١٣). الناموس كان يعلن أن الإنسان محتاج إلى ذبيحة لتفديه، فأتى المسيح ليكون هو بنفسه تلك الذبيحة. نعم، بهذا المعنى أتى المسيح ليكمل الناموس. وهو إذ صار الذبيحة، واحتمل اللعنة، ودفع أجرة الخطية، فها هو من فوق الصليب يقول «قد أُكمِل».

تفكَّر – عزيزي القارئ – في تلك الذبائح التي كانت تُقدَّم حسب الناموس. ما أغزر أنهار الدماء التي سالت من الذبائح قديماً، بدءاً من الذبيحة التي قدمها الله في الجنة، مروراً بكل الذبائح التي قُدِّمت قبل الناموس، ثم تضاعفت مئات المرات في عهد الناموس «لأن بالناموس معرفة الخطية» (رو٣:٢٠). نعم، تفكَّر في الرموز المتنوعة: بدءاً من البقرة الحمراء، وثور الخطية، منتهياً بالحمام واليمام، وبالعصفور المذبوح (لا ١٤)، بل أيضاً بقربان الدقيق وسكيب الخمر. ثيرانٌ ذُبِحَت، وكباشٌ نُحِرَت. أمَا كان من نهاية لهذا كله؟! مُحال، فإن ذبائح الناموس ما كانت تمنح مُقدِّمها سوى راحة موقَّتة* للضمير. يقول الوحي المقدس «لأنه لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا» (عب١٠:٤)، إلى أن جاء المسيح رئيس كهنة الخيرات العتيدة، ذاك الذي أُظهِر مرَّة عند انقضاء الدهور ليبطل الخطية بذبيحة نفسه (عب٩:١١،٢٦).

إن مجيء المسيح، وموته فوق الصليب باعتباره الذبيحة الواحدة الكاملة الحقيقية أنهيا ذلك النظام القديم تماماً. واسمع ما يقوله الكتاب المقدس عن ذلك «عند دخوله إلى العالم (أي المسيح) يقول ذبيحة وقرباناً لم تُرِد، ولكن هيأتَ لي جسداً. بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسرّ. ثم قلتُ هنذا أجيء، في درج الكتاب

---

* نلاحظ أن خيمة الاجتماع لم يكن فيها كرسي ليجلس عليه الكهنة، ذلك لأن العمل لم يكن قد اكتمل، كقول الوحي «كل كاهن يقوم كل يوم يخدم ويقدم مراراً كثيرة تلك الذبائح عينها التي لا تستطيع البتة أن تنزع الخطية. وأما هذا (المسيح) فبعد ما قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة، جلس إلى الأبد عن يمين الله» (عب١٠: ١١،١٢).

مكتوب عني، لأفعل مشيئتك يا الله» (عب١٠:٥-٧). ويُعلّق الرسول على ذلك قائلاً «ينزع الأول لكي يُثبّت الثاني». فلقد نزع الله العهد الأول، والنظام الأول بذبائحه الدموية التي لم تكن تكفر عن الخطية قط، لكي يثبّت الثاني: أي يثبت العهد الجديد. نعم، إن ذبيحة المسيح على الصليب أنهت النظام القديم بذبائحه التي كانت موضوعة فقط لوقت الإصلاح، وعهد الرموز اضمحل إلى الأبد. ولهذا كانت صرخة المسيح الرائعة من فوق الصليب «قد أُكمِل».

ما أعظم صرخة المسيح هذه! إنها تعني أنه قد وفّى الدّين كله، وحمل اللعنة كاملة، وشرب كأس الدينونة حتى آخرها دون أن يُبقِي لنا قطرة واحدة منها. والويل لنا ألف مرة لو لم يقل المسيح «قد أُكمِل»، أو لو كان المسيح أبقى لنا ولو مثقال ذرة من الدّين لنوفيه نحن، أو لو حمل كل خطايانا وترك واحدة فقط لنتولى نحن التكفير عنها بأنفسنا؛ إذاً لتعيَّن علينا أبدية لا تنتهي في جهنم بلا أدنى أمل في الخروج، ولَمَا كان يمكننا أن نقول في يوم من الأيام هذه العبارة «قد أكمل». أما الآن وقد قال المسيح بديلنا المبارك «قد أُكمِل» فهذا معناه أنه قد قضى عنا إلى الأبد، وأنه وفى الدين كله، ولم يُبق علينا فلساً واحداً لنوفيه نحن.

ضعوا سيوفكم النارية في الغمد يا كروبيم السماء، وليصمت قصيف رعودك المرعبة أيها الناموس العادل، فلقد وفى ديني كله الحمل، ومن فوق الصليب قال بديلنا المبارك قد أكمل.

ضعوا سيوفكم النارية في الغمد يا كروبيم السماء، وليصمت قصيف رعودك المرعبة أيها الناموس العادل، فلقد وفى ديني كله الحمل، ومن فوق الصليب قال بديلنا المبارك «قد أُكمِل».

الأمر الخامس: أكمل النبوات

فكما أكمل المسيح الناموس بكل رموزه وطقوسه، هكذا أيضاً أكمل النبوات. فهناك مئات النبوات في أسفار العهد القديم تجمَّعت كلها لتجد تتميمها بكل دقة في شخص واحد فقط. فمن يكون هذا الشخص سوى مسيح الله ورجل مشوراته.

لو حاول أحد أن يُخرِج المسيح من الكتاب المقدس، لمَا يبقى فيه بعد ذلك إلا طقوس عقيمة لا معنى لها. وأمَّا النبوات العديدة التي تُحدثنا عن أمل البشرية ومُشتهى كل الأمم فكانت إذ ذاك ستشير إلى لا شيء، أو بالحري إلى شخص ليس له وجود. أما الآن فهي تشير إليه وتتحدث عنه. فلقد أتى المسيح إلى العالم، ومضى إلى الصليب، فأصبحت كل الرموز والطقوس والنبوات لها معناها المفهوم والواضح. يقول الكتاب المقدس «شهادة يسوع هي روح النبوة» (رؤ١٩: ١٠)، بمعنى أن شهادة المسيح بالنسبة للنبوة هي روحها. لولاها لأصبحت النبوة جسداً بلا روح. ولهذا فإن من يقرأ أسفار التوراة دون أن يكون نصب عينيه أنها كلها تتحدث عن المسيح فإنه لن يفهم منها شيئاً على الإطلاق، وتصبح مجرد روايات وقصص، حتى لو كانت أحسن القصص.

حقاً ما أكثر النبوات التي قيلت عن المسيح، بدءاً من تلك التي قيلت في الجنة (تك٣: ١٥)، مروراً بالتي قيلت قبل الناموس (تك٢٢: ١٨؛ غل٣: ١٦)، ثم تلك التي قيلت في الأرض أو في السبي، بجوار نهر الأردن أو نهر خابور. إن موسى وإيليا وهما فوق الجبل المقدس مع المسيح كأنهما يقولان: "أخيراً فهمنا ليس فقط معنى الرموز الكثيرة في الناموس، بل أيضاً إلى مَن كانت تشير أقوال النبوات العديدة، عرفنا عمن تكلم الأنبياء: فحقاً ليس عن أنفسهم هم جميعاً تكلموا، بل عن واحد آخر" (أع٨: ٣٤).

ثم لاحظ توقيت النطق بتلك العبارة «قد أُكمِل» كما أوضحه لنا البشير

يوحنا، إذ يقول: «بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل، فلكي يتم الكتاب قال: أنا عطشان». لقد مرَّ المسيح بذهنه على مئات النبوات ليرى هل بقي شيء منها غير متمم؟ فرأى نبوة واحدة صغيرة ينبغي أن تتم قبل أن يُسلِمَ الروح، فلا يمكن أن تسقط كلمة واحدة، حتى لو بدت في نظر الناس غير مهمة. ولمَّا شرب الخل قال «قد أُكمِل». فالرب – له المجد – لم ينطق بكلمة «قد أُكمِل» إلا بعد أن تمَّم كل النبوات عن آلامه. وهكذا لم تسقط كلمة واحدة من جميع ما تكلم به الأنبياء بالروح القدس، بل تمت النبوات جميعها بكل دقة (أع٣:١٨؛ ٤:٢٨؛ ١٣:٢٧،٢٩).

ويعوزنا الوقت لنمر على نبوات العهد القديم التي تمت في المسيح؛ مثل ولادته من عذراء (إش٧:١٤؛ مت١:١٨)، وولادته في بيت لحم (مي٥:٢؛ مت٢:٦)، ثم الهرب به إلى مصر (هو١١:١؛ مت٢:١٣-١٥)، ويوحنا المعمدان مُهيئ الطريق قدامه (إش٤٠:٣؛ مر١:٢،٣)، وآيات وعجائب نعمته (إش٣٥:٥،٦)، وعيشته كفقير ومسكين (مز٤٠:١٧)، وأسلوب كلامه بأمثال (مز٧٨:٢؛ مت١٣:٣٤،٣٥)، واحتقار الناس له (إش٥٣:٣؛ يو٦:٤٢؛ ٧:٢٠؛ ٨:٤٨)، ورفضه مِنْ قِبَلِ أمته واخوته (مز٦٩:٨؛ يو١:١١)، وخيانة أحد تلاميذه له (مز٤١:٩؛ يو١٣:١٨)، وأنه سيُساق كشاة إلى الذبح (إش٥٣:٧؛ أع٨:٣٢-٣٥)، حتى نصل إلى آخر نبوة تممها قبل أن يقول «قد أُكمِل»، عندما في عطشه سقوه خلاً (مز٦٩:٢١). هذه والكثير جداً غيرها نبوات تمت عنه وفيه.

بوسعنا الآن إذاً، أن نقول كما قال الرسول بطرس «إننا لم نتبع خرافات مُصنَّعة». من ثَمَّ قال «وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبت (أو وقد تثبتت)» (٢بط١:١٦،١٩)، فتتميم النبوات جعل موضوع الإيمان أكثر ثباتاً.

الأمر السادس: أكمل المسيح مسيرة الاتضاع

ما أعظم هذا المفهوم لذلك النطق العظيم «قد أُكمِل». فلقد قاله المسيح بعد أن قال أنا عطشان، فسقوه الخل. وبهذا الأمر أكمل المسيح رحلة التعب والاتضاع في عالم الخطية والضياع، الرحلة التي امتدت إلى أكثر من ثلاث وثلاثين سنة، فيها ذاق من الهوان والفقر ما لم يذُقه سواه. فلقد وصل فقره – تبارك اسمه – إلى أبعد حد: إلى حد العطش، وعدم إمكانه شرب الماء. والواقع كم كان مسار المسيح في هذا العالم أنموذجاً عجيباً وفريداً في الاتضاع والفقر. لقد قال مرة «للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه» (مت٨: ٢٠)، لكنه أخيراً بعد أن شرب الخل قال: قد أكمل، ونكس رأسه: أسنده على الصليب!

أرأيت – عزيزي القارئ – طريقاً للاتضاع والفقر مثل هذا؟ إنه طريق عجيب من المجد إلى المهد. لكن أيُّ مهدٍ؟ لقد كان مهده مذوداً للبهائم! فذاك الذي سماء السماوات لا تسع مجده، لم يكن له موضع في المنزل. نعم، يا لطول الطريق، ويا لبعد المسافة من ذُرى المجد إلى نظير هذا المهد! ثم يا لهول الطريق ومشقته من المهد إلى الصلب واللحد، في أرض لا تُنبِت سوى الشوك والحسك. اسمع ما يقوله الوحي عن ذلك الطريق العجيب «الذي إذ كان في صورة الله، لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه، آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس. وإذ وُجِد في الهيئة كإنسان، وضَع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب» ، أي وصل إلى أدنى أنواع الموت وأسوإها، موت العار والاحتقار، الموت تحت لعنة الناموس. لكن ماذا بعد موت الصليب؟ هل مِنْ اتضاع أبعد من موت الصليب؟ كلا. وها المسيح هنا قَبْل أن يسند رأسه ويسلم الروح يقول «قد أُكمِل» . لقد أكمل مسيرة الاتضاع

والفقر، ليبدأ من تلك اللحظة مسيرة أخرى مختلفة في كل شيء، هي مسيرة الرفعة، فيقول الكتاب المقدس «لذلك رفّعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومَن على الأرض ومَن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب» (في ٢:٦-١١).

نعم، لقد أُكمِلت بالنسبة للمسيح مسيرة الاتضاع والفقر بعد أن عطش وشرب الخل. وهو لن يعطش في ما بعد، ولن يجوع. قبل أن يبدأ المسيح رحلته الأخيرة إلى المحاكمات والصليب، ذكر الروح القدس أن يسوع وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب (يو١٣:١)، وكم كان سرور المسيح عظيماً أن يترك العالم ويذهب إلى الآب (يو١٦:٢٨). ألم يقُل لتلاميذه في حديث الوداع الأخير «لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأني قلت أمضي إلى الآب، لأن أبي أعظم مني» (يو١٤:٢٨). وها هو هنا يعلن «قد أُكمِل»، وبعدها مباشرة قال: «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي» (لو٢٣:٤٦).

لقد انتهت بالصليب مسيرة تواضع المسيح وخزيه. لن يراه العالم في ما بعد كما رآه سابقاً مُحتَقَراً ومخذولاً من الناس، بل إن الناس الأشرار لن يروه حتى يأتي في قوة ومجد كثير.

هذا التغيير الكلي والانتقال المفاجئ في المسيرتين نجده مذكوراً بوضوح في آخر المزمور١٠٩، مقارنةً ببداية المزمور١١٠. ففي آخر المزمور١٠٩، نجده كالإنسان المسكين، أما في بداية المزمور١١٠، فنراه الرب المُمَجَّد حيث نقرأ القول «قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك». نعم، لقد انتهت بالصليب مسيرة تواضع المسيح وخزيه. لن يراه

العالم في ما بعد كما رآه سابقاً مُحتقَراً ومخذولاً من الناس، ولن يكون وجهه كذا مفسداً أكثر من الرجل وصورته أكثر من بني آدم، بل إن الناس الأشرار لن يروه حتى يأتي في قوة ومجد كثير. فالمسيح بعد القيامة لم يَرَه أحد من الأعداء أو الأشرار قط، مع أنه أظهر نفسه مرات لقديسيه. ولن يراه الأعداء حتى يأتي في نار لهيب معطياً نقمة للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح. عندئذ سيهرب الأشرار من حضرته قائلين للجبال والصخور: اسقطي علينا واخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف. وبعد ذلك من وجهه أيضاً ستهرب الأرض والسماء ولن يوجد لهما موضع (رؤ٦:١٦؛ ٢٠:١١).

يقول الرسول «من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب مستهيناً بالخزي» (عب١٢:٢). وهذا السرور الموضوع أمامه هو أن ينتقل من هذا العالم إلى الآب. وإن كان بولس في آخر حياته قدّم نفسه كالسكيب، وبفرح قال «أكملت السعي» (٢تي٤:٦،٧)، فكم بالحري المسيح هنا يسكب نفسه للموت، وعلى لسانه تلك العبارة الغالية «قد أُكمِل»؟

الأمر السابع: إكمال رحلة الألم

لكن المسيح لم يُنهِ فقط مسيرة الاتضاع والفقر، بل أنهى أيضاً طريق الألم. فليس أنه فقط كان يقصد بعبارته هذه إكمال العمل، بل إنه أكمل أيضاً رحلة الألم.

من البداية، كان – له المجد – يقول: «لي صبغة أصطبغها (مشيراً إلى آلام الصليب التي ستتخلل كل نفسه)، وكيف انحصر حتى تكمل(أو وكم أنا محصور حتى تكمل)» (لو١٢:٥٠). وما كان أقسى الآلام التي تعيَّن على ابن الله أن يحتملها لأجل خلاصنا. إنها الآلام التي كنا نستحقها نحن عدلاً أجرة لآثامنا وخطايانا، حملها هو بالنعمة نيابةً عنا، لأنه لاق بذاك (أي الله) الذي من

أجله الكل وبه الكل، أن يكمّل رئيسَ خلاصنا بالآلام، كي ما يأتي بنا الله أبناء كثيرين إلى المجد (عب٢:١٠).

والمسيح لم يتألم نوعاً واحداً من الآلام، بل تألم ظلماً وغدراً على أيدي البشر، وتألم حقداً وعدواناً على يد الشيطان، كما تألم عدلاً وبراً على يد الله. لكنه إذ احتمل كل هذه الآلام، صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي (عب٥:٩). ولهذا جاءت صرخة المسيح «قد أُكمِل» مُعلنةً أنه احتمل الألم كله. لقد أكمل طريق الألم، وشرب كأس الغضب حتى آخرها، من ثَمَّ قال «قد أُكمِل».

ولقد كانت هذه الصرخة فعلاً نهاية لرحلة الألم والمعاناة؛ فلم يُترك جسده بعدها نهباً للجوارح لتنقض عليه، ولا نهباً للعيون الفاسقة لتتفرس فيه. ولم تُكسر ساقاه كما حدث مع المصلوبَين الآخرَين المصلوبَين معه، ولم يُدفَن مع الأشرار كما خططوا له وكما كان مُتوقعاً. نعم إنها صرخة أنهت كل المعاناة والألم بالنسبة لسيدنا لتبدأ مسيرة الإكرام والتقدير. فتمَّ فيه وعد الرب للتقي «يحفظ جميع عظامه، واحد منها لا ينكسر» (مز٣٤:٢٠)، كما تمت فيه النبوة أنه سيُدفن «مع غنيٍّ عند موته» وذلك لأنه «لم يعمل ظُلماً ولم يكن في فمه غش» (إش٥٣:٩)، كما تمَّت فيه أيضاً النبوة «لن تترك نفسي في الهاوية. لن تدع تقيَّك يرى فساداً. تعرِّفني سبيل الحياة. أمامك شبع سرور. في يمينك نِعَمٌ إلى الأبد» (مز١٦:١٠،١١). وليس هذا بغريب، لأنه إن كان الله قد تمجد فيه (بموته الكفاري على الصليب) فكان حتماً أن يمجده الله في ذاته ، ويمجده سريعاً (يو١٣:٣٢).

لقد سُحِقَ سيدنا في الصليب، وطمَت عليه كل تيارات ولجج الله وميازيب عدله، والتهمته نيران غضب الله، وضُرِب بسيف العدل الرهيب، والعدل اكتفى، فماذا بقي؟ لا شيء، وها هو يقول «قد أُكمِل».

ما أروعَ العملَ الـــذي أكملتَــهُ	وبموتِكَ فوقَ الصليــب ختمتَــهُ
كلُّ النبواتِ وموسى وما كَتَــبْ	فــي ســفرِهِ داود قــد أتممتَـــهُ
كُمِّلتَ بـــالألمِ فأفسِـدَ وجــهكَ	وعلى الجبينِ الغُرِّ خَطَّ خطوطَــهُ
والآنَ فيكَ تمجدَ بـــل واكتمَــلْ	بصليبِــكَ يـــا ســيدي تمجيـــده

لك المجد يا ربنا! فآلام جهنم مُركَّزة تحملتها بالنيابة عنا. وأبْشِر يا أخـــي المؤمن، فطالما أن المسيح أكمل من فوق الصليب العمل لأجلنـــا محتمـــلاً الآلام الرهيبة فهو حتماً سيكمل العمل فينا. وإن كان هو قد أكمل الأصعب فهو حتمـــاً سيكمل الباقي وهو أسهل. والذي ذهب لأجلنا ذهابـــاً بالبكـــاء، حـــاملاً ميـــذَر الزرع، لا بد أن يجيء مجيئاً بالترنم حاملاً حزمه. ثم إن كـــان المســـيح تـــألم لأجلنا ونحن خطاة، فبالأولى كثيراً وقد صرنا أحبـــاءه نخلـــص الآن بحياتـــه، ونخلص أيضاً به من الغضب الآتي عندما يأتي هو لأجلنا من الســـماء ليأخذنـــا إليه، وهكذا نكون كل حين مع الرب.

رابعاً: نتائج كمال عمل المسيح

وهي نتائج مزدوجة: بالنسبة للخطاة ، وبالنسبة للمؤمنين.

أولاً: بالنسبة للخطاة

أيها الصديق العزيز، لقد عمل المسيح عمل الفداء من فوق الصليب وأكملـــه، وليس ذلك فقط بل لقد أعلن ذلك بنفسه أيضاً، فوضع ختم المصادقة والكمال علـــى ما عمله تبارك اسمه. ولقد اكتفى الله حقاً بهذا العمل. ترى أتكتفي أنت بـــه؟ أم تريد أن تضيف عليه شيئاً من عندك؟ ليت روح الله يوضح لكل واحد من القـــراء

الأعزاء أن عمل المسيح العظيم والرائع لا ينبغي أن تضيف عليه أي شيء. لقد اكتفى الله. ولحظة تؤمن بالمسيح وبعمله الكامل لأجلك على الصليب تنتقل من الموت إلى الحياة، وتتعم بكل بركات الفداء.

لقد مضى المسيح إلى الصليب ليجهز لنا بموته وليمة النعمة الغنية. وها بشارة الإنجيل تقول «**تعالوا لأن كل شيء قد أُعِدّ**». فلماذا لا تأتي؟ ولماذا تبقى بعيداً؟

والشيء الجميل أن المسيح لم يكمل هذا العمل فقط، بل أعلن ذلك بنفسه أيضاً. فأبْشِر يا أخي: لقد اكتفى الله حقاً بهذا العمل. ويا لها من راحة عظمى لقلب المؤمن، فعمل الإنسان مهما كان هو أبعد ما يكون عن الكمال، أما عمل المسيح الذي عمله من فوق الصليب فهو حقاً عمل كامل.

الشيء الجميل أن المسيح لم يكمل هذا العمل فقط، بل أعلن ذلك بنفسه أيضاً. فأبْشِر يا أخي: لقد اكتفى الله حقاً بهذا العمل. ويا لها من راحة عظمى لقلب المؤمن.

يا من تعذبون أجسادكم للتكفير عن نفوسكم، كفوا عن محاولاتكم هذه، فكل شيء قد أُعِد. يا من تظنون أن صلواتكم وعهودكم، وذهابكم إلى أماكن العبادة يمكن أن تضيف إلى عمل المسيح أي قيمة، أنتم مخطئون بشدة، فالمسيح قال «قد أُكمل». يا من تسأل «ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخلص؟» تعالَ كما أنت، فالمسيح قد أكمل العمل. يا من تشعر باليأس من أن ترضي الله أو أن تهرب من الخطية وعقابها الأبدي، تعالَ سريعاً ولا تؤجل فمن فوق الصليب قال المسيح كلمته العظيمة والرائعة «قد أُكمل».

ثانياً بالنسبة للمؤمنين

أما بالنسبة للمؤمنين، فكلمتي إليكم مزدوجة: ابدأها بمسئوليتكم وأختمها

بامتيازاتكم. ما أكبر المسئولية التي علينا في أن نعلن أخبار هذا العمل العظيـم. لقد أعطانا الله خدمة المصالحة، أن نقول للناس: تصالحوا مع الله لأنـه جعـل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا، لنصير نحن بـر الله فيـه. فـهل نعـي المسئولية الجسيمة الملقاة على أعناقنا؟ لقد قام بها الرسل والمؤمنون الأوائـل كما نقرأ في سفر الأعمال، فهل نحن أيضاً نفعل ذلك؟

لكن أيها المؤمن العزيز أقول لتعزيتك إن الله الذي عمـل لأجلـك عمـلاً كاملاً، سوف يعمل فيك عملاً كاملاً أيضاً. وكما بدأ فيك عملاً صالحـاً، لا بـد أنه سوف يكمل. لقد عمل الجزء الأصعب، أفلا يتمم العمـل؟ إن الرجـل لا يهدأ حتى يتمم الأمر اليوم!

العبارة السابعة من فوق الصليب

كلمات التسليم

ونادى يسوع بصوتٍ عظيمٍ وقال:

يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي

(لو ٢٣:٤٦)

هذه هي آخر العبارات السبع التي نطق بها الرب يسوع من فوق الصليب، وآخِر نُطقٍ له قبل أن يسلم الروح. ونحن نعرف كم تكون الكلمات الأخيرة للشخص عند الاحتضار ذات قيمة خاصة ومدلول هام.

وقبل التحدث عما نتعلمه من هذه العبارة، نذكِّر القارئ بأن عبارات المسيح الأربع الأخيرة من فوق الصليب قيلت كلها في آخر ساعات الصلب الست، وقبيل موت المسيح مباشرة، كما أنه يجمعها معاً ارتباط عجيب في ثنائيتين. فصرخة الهجر (العبارة الرابعة) جاءت لأن الله ترك المسيح بسبب صيرورته في ساعات الظلمة ذبيحة خطية، فجاءت العبارة الخامسة تُعبِّر عن أشواق المسيح إلى الله. ثم عبّرت صرخة الانتصار (العبارة السادسة) عن إكمال المسيح للعمل الذس سلّمه إياه الله، فجاءت الصرخة التالية والأخيرة وفيها يُسلِّم هو روحه في يدَّي الآب!

«**يا أبتاه، في يديك أستودع روحي**». أول ما يلفت نظرنا في هذه العبارة أنّ المسيح وجَّهها لأبيه. والمسيح من فوق الصليب وجَّه عباراته التي نطق بها إلى أشخاص عديدين؛ فعبارة منها وجَّهها إلى أمه ليُرتِّب أمورها الزمنية وأين تكون بعد موته، وعبارة أخرى وجَّهها إلى لص تائب ليُرتِّب أموره الأبدية، وأين سيكون بعد موته هو. وعبارة ثالثة وجَّهها إلى الله الديان من أعماق الحزن والألم قائلاً «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟» كما أنه وجَّه صرخة لِكل مَن له أذن

للسمع قائلاً: «أنا عطشان». ثم وجَّه عبارة أخرى إلى كل مَن يهمهم الأمر بأنـــه من فوق الصليب قد أكمل العمل. لكن عبارتيه الأولى والأخيرة من بين عباراتـــه السبع من فوق الصليب كانتا صلاتين لأبيه، بدأ كلتيهما بالقول «يا أبتاه».

ولأن هذه العبارة - كما أسلفنا - هي آخِر عبارة للمسيح قبل موتـــه، فـــإنَّ هذا يقودنا إلى التأمل في موت المسيح، ونتأمله من زاويتين:

أولاً: هو موت ما أصعبه!

ثانياً: هو موت ما أروعه!

أولاً: ما أصعب موت المسيح!

لقد كانت حياة المسيح سلسلة متصلة من الآلام والأحزان، فقيل عنه بحـــق «رجل أوجاع ومختبر الحزن» (إش ٥٣:٣). لكن الأوجاع الثقيلـــة والحـــزن المذيب كانت هناك فوق الصليب. مَن فينا يقدر أن يعرف مـــا تحملـــه بديلنـــا الكريم عندما كان مُعلّقاً لأجلنا في الجلجثة؟ في الثلاث ساعات الأولـــى، تـــألم على يد الشيطان وعلى يد الإنسان، أما في الثلاث الساعات الأخيرة فقد تـــألم - بوصفه حامل الخطايا - على يد الله الديان. في أثنائها ضُرب الراعـــي رفيـــق رب الجنود من الرب نفسه، وتحمّل الضربة كاملة، وشرب كأس الغضب حتـــى نهايتها، وقال «قد أُكمِل».

والآن دعنا نقترب من مشهد الموت نفسه. والموت بالنســـبة للإنســـان - بصفة عامة - هو أرهب المناظر جميعها وأفظعها. إنه كما نعلم عدو البشـــرية الأول. فكيف كان هذا المشهد بالنسبة للمسيح يا تُرى؟

ارفعي عينيك يا نفسي وشاهدي ربك فوق الصليب. تأملي فراش المـــوت

الذي أُعِدَّ له. أكان فراشاً قشيباً؟ آه، ما أرهب ذلك المنظر! أين أحباؤه، ومريدوه، وتلاميذه؟ من كان منهم هناك ليجفف عرقه، وليوقف نزف دمه؟ من كان هناك ليشجعه ويواسيه، وليتصرف معه تصرفاً واحداً رقيقاً ينعش قلبه ويشجع روحه؟ مَن كان هناك ليقدِّم له الماء قبيل موته لمَّا قال «أنا عطشان»؟

آه يا سيدي، مَن ودَّع الحياة وحيداً تغطيه الظلال القاتمة كتلك الظلال التي أحاطت بمشهد موتك؟

لكن أرجو – عزيزي القارئ – ألا تخطئ الظن. فلم يكن هذا هزيمة للمسيح كأنه أُجبِر على ذلك جبراً. كلا، بل كان عمل تضحية رائعة، نابعة من قلب أحب بلا حدود. فهو – تبارك اسمه – ما كان ليخضع للموت نظيرنا، لكنه أذعن له بمطلق إرادته، وبموته كسر شوكة الموت. نعم، لقد كان موته موتا نيابياً وكفارياً، أي أنه كان يموت بالنيابة عن كل واحد من المؤمنين به، أولئك الذين بسرور وشكر وضعوا كل ثقتهم فيه.

وهنا أنا أنتقل إلى جانب مختلف تماماً من الصورة السابقة لأتأمل، لا في ما تراه العين البشرية، بل ما تراه عين الإيمان، فأقول

ثانياً: ما أروع موت المسيح!

نعم ما أروع الطريقة التي انتهت بها حياة المسيح[*]! ومرة أخرى أقارن هنا بين حياة المسيح وموته. فحياته ما أروعها. لقد عاش كل حياته متكلاً على إلهه. يقول له بحسب المزمور ٢٢ «لأنك أنت جذبتني من البطن. جعلتني

[*] إنجيل لوقا، الذي يحدّثنا عن المسيح ابن الإنسان، سجّل لنا تفصيلات مولده وموته: خروجه من رحم المطوّبة العذراء مريم إلى الحياة، ثم خروجه من الحياة بالموت إلى القبر!

مطمئناً على ثديي أمي. عليك أُلقيتُ من الرحم. من بطن أمـــي أنـت إلــهي». فذاك الذي هو الله من الأزل، صار إنساناً، وأخذ مركز الإنســان الكــامل المُتَّكِـل على الله. ولقد عاش حياة لا نظير لها. وها هو يموت كالإنسان. فكيف يموت؟

إنه يموت وعلى شفتيه صلاة للآب! إنه يقول له: «يا أبتـــاه، فـي يديـك أستودع روحي»، ثم يموت. فما أروع هذا!

لقد كانت أُولى كلماته المسجلة له في الوحي المقدس هي قوله للمطوَّبة أمـه بحسب ما ورد في لوقا ٢ «ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي*؟» فــهو هنا قال عن الله إنه أبوه، تماماً كما قال الله عنه «أنت ابنـــي الحبيـب». أمـا الأشرار فقد اعتبروه مُجَدِّفاً لأنه قال إن الله أبوه، فصلبوه. لكن ها هــو، فـي آخر نُطق له من فوق الصليب، وقبل أن يسلم الروح، يقول **بصوت عظيم** «يـــا أبتاه، في يديك أستودع روحي».

لقد كان سيدنا دائماً هو بحق الإنسان الكامل المتكل علــى الله، فلمَّـا أتـت ساعة الموت كان هو أيضاً الإنسان المتكل علـــى الله. هــو القــائل بحسـب المزمور ١٦ «احفظني يا الله، لأني عليك توكلتُ»، ثم يضيــف قــائلاً «جعلـت الرب أمامي في كل حين، لأنه عن يميني فلا أتزعزع»، ثـــم يسـتطرد قــائلاً «لذلك فَرِحَ قلبي، وابتهجت روحي. جسدي أيضاً يسكن مطمئناً». ولهذا فـــإن المسيح هنا أمام مشهد الموت ما زالت ثقته في إلهه كاملــة، فيسـتودع روحـه الإنسانية بين يدي الآب.

صحيح كان المسيح قد سبق وأنبأ عن ذلك اليوم العصيـب أن ابـن الإنسـان

* إنجيل لوقا، الذي – كما أشرنا – يحدثنا عن المسيح باعتباره الإنسان، ذكـر لنـا أولـى كلمـات الرب يسوع المسجَّلة في الوحي وآخر كلماته. كلماته الأولى كانت عن أبيــه، والأخـيرة إلـى أبيه، فهو في حياته كان في ما لأبيه، وعند موته كان في يدي أبيه.

سوف يُسلَّم إلى أيدي الناس الخطاة (لو٩: ٤٤؛ ٢٤: ٧)، وهذا ما حدث من لحظة القبض عليه في البستان حيث ألقوا عليه الأيادي (مت٢٦: ٥٠؛ مر١٤: ٤٦؛ لو٢٢: ٥٣)، لكنه الآن، وقد أكمل العمل، يسلِّم روحه **في يدي الآب**. وصحيح أيضاً أنه عبرت على المسيح في الجلجثة عاصفة هوجاء، لم يرَ فيها وجه الله الكريم، عندما دخلت نفسه في أعماق الظلمة. لكنه بعد هدوء العاصفة وعبور الظلمة استعاد شركته ثانية مع الله أبيه كي لا تتعطل بعد ذلك ولو إلى لحظة واحدة. وها هو يقول «**يا أبتاه، في يديك أستودع روحي**».

كان - تبارك اسمه - عجيباً ورائعاً في كل شيء: لم يُولد أحد كما ولد هو، ولم يَعِش أحد كما عاش، ولم يَمُت أحد كما مات. إنه الفريد حقاً في كل شيء!!

لنتعلم أنه إن كنا نتمنى أن تكون خاتمة حياتنا صلاة، فلتكن حياتنا نفسها حياة الصلاة، وإن من أراد أن يموت موت الأبرار، وأن تكون آخرته كآخرتهم، عليه أولاً أن يحيا حياة الأبرار.

هذا يجعلني أحدثك - أيها القارئ العزيز - عن كيف يجب أن تنتهي الحياة. فلقد تحدَّثنا الآن عن موت المسيح الصعب والرائع في آن معاً. كيف استطاع المسيح أن يجمع النقيضين؟ وكيف استطاع أمام موت رهيب كهذا أن يتصرف هكذا، وعندما أتت لحظة الانطلاق أن يتحول عن الكل إلى الله مخاطباً إياه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي»؟

الإجابة: إن عادة المسيح في كل حياته كانت أن يسلم نفسه تماماً لأبيه. كان سيدنا المبارك، كل حياته، في شركة مع أبيه، كانت كل حياته صلاة. وعندما دنت ساعة الموت كان الاتكال على الله والصلاة شيئين طبيعيين بالنسبة له.

ومن هذا نتعلم أنه إن كنا نتمنى أن تكون خاتمة حياتنا صلاة، فلتكن حياتنا نفسها حياة الصلاة، وإنَّ من أراد أن يموت موت الأبرار، وأن تكون آخرته كآخرتهم (عد٢٣: ١٠)، عليه أولاً أن يحيا حياة الأبرار.

أتعرف كيف يموت البار؟ إنه في اللحظة التي تنطلق فيها روحه من عِقال الجسد، تذهب فوراً لتكون مع المسيح في الفردوس، أما الأشرار فعنهم يأتي قول الكتاب «الأشرار يرجعون إلى الهاوية، كل الأمم الناسين الله» (مز ٩: ١٧). وما أبعد الفارق بين النهايتين، بل ما أبعد الفارق أن يستودع المؤمن روحه – ساعة رقاده – بين يدي راعيه وفاديه الحبيب، وآخر يقع في يدي الله الغاضب، إذ «مخيف هو الوقوع في يدي الله الحي».

* * * *

ولكن لنا أن نتعلم أيضاً من هذه العبارة: «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي»، المزيد من الدروس الثمينة.

أولاً : أن المسيح مات موتاً حقيقياً

يدَّعي بعض المعلمين الكذبة والهراطقة بأن المسيح لم يمت فوق الصليب، بل كل ما حدث له هو إغماءة فقط، وأنه لمَّا وُضع في القبر الرطب استعاد وعيه من جديد وأفاق! وهم بهذا يضربون عرض الحائط بآيات الكتاب الصريحة والعديدة التي تقول إنه مات. «فإنني سلمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضا: أن المسيح **مات** من أجل خطايانا حسب الكتب... لأنه إن كان الموتى لا يقومون، فلا يكون المسيح قد قام» (١كو١٥: ٣، ١٦)، وأيضاً «لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع **مات** وقام، فكذلك الراقدون بيسوع، سيُحضرهم الله

أيضاً معه» (اتس٤: ١٤). بل أيضاً كلمات المسيح نفسه عندما قال ليوحنا الحبيب في جزيرة بطمس «أنا هو الأول والآخر، والحي. **وكنت ميتاً**، وها أنا حي إلى أبد الآبدين» (رؤ١: ١٧، ١٨).

لقد كان الموت أحد أهم أغراض تجسد ابن الله. لقد «وُضِعَ قليلاً عن الملائكة (بالتجسد)... **من أجل ألم الموت**» (عب٢: ٩). وأيضاً «إذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكي يبيد **بالموت** ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس» (عب٢: ١٤). فالمسيح إذاً أتى إلى العالم «لكي يذوق بنعمة الله **الموت** لأجل كل واحد» (عب٢: ٩).

وشهادة شهود العيان هي أقوى الأدلة في أية قضية، وتزداد طبعاً قيمة شهادتهم إذا كانوا ذوي اختصاص في المسألة التي يؤدُّون شهادتهم فيها. وفي مسألة موت المسيح فإن الشهود الرسميين هم الجنود الذين كان منوطاً بهم القيام بعملية الصلب. فيقول لنا إنجيل يوحنا «سأل اليهود بيلاطس أن تُكسَر سيقانهم (المصلوبين) ويُرفعوا. فأتى العسكر وكسروا ساقي الأول والآخر المصلوب معه. وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه، لأنهم رأوه قد **مات**» (يو١٩: ٣١). وبالتأكيد ما كان أحد من الجنود يجرؤ على مخالفة التعليمات الصريحة التي عنده من الوالي بكسر ساقي كلٍ من المصلوبين الثلاثة ما لم يكن هناك سبب هام لذلك، فما هو يا ترى هذا السبب؟ السبب هو أن المسيح كان قد مات. وهم بكل يقين كانوا مُدربين جيداً على عملهم هذا، وبالتالي فهم أقل الناس عرضة للخطأ في هذا الأمر.

ثم قد كان على رأس الجنود المكلفين هذا العمل قائد مئة: هذا القائد لما رأى العجائب التي صاحبت موت المسيح قال «حقاً كان هذا ابن الله» وأيضاً «بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً». لاحظ قول القائد: «**كان** هذا ابن الله»، و«**كان** هذا...

باراً»، وليس *إن* هذا، مما يعني أنه كان قد مات. ويزيل البشير مرقس أي التباس في الأمر إذ يذكر صراحة أن قائد المئة الواقف مقابل المسيح «لما رأى... أنه صرخ هكذا وأسلم الروح، قال حقاً كان هذا الإنسان ابن الله» (مر١٥:٣٩).

بل إن البشير مرقس يستطرد قائلاً إن بيلاطس دعا قائد المئة وسأله «هل له زمان قد مات؟» (مر١٥:٤٤). فالأمر لم يمر هكذا دون تحرٍّ من الوالي بنفسه عن هذه الحقيقة العظيمة.

وهنا لنا في كلمة المسيح الأخيرة من فوق الصليب دليل في مسألة موت المسيح، إذ إن يسوع صرخ بصوت عظيم قائلاً «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي».

ثانياً: أن المسيح مات موتاً اختيارياً

فنحن هنا لا نسمع المسيح يقول بصوت متهدج: ها أنا أغيب عن وعيي وأخور، ولا حتى: ها أنا ذاهب في طريق الأرض كلها (يش٢٣:١٤؛ ١مل٢:٢)، بل إنه نادى بصوت عظيم وقال «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». وصراخه بصوت عظيم يدل على أن قواه الجسدية كانت حاضرة تماماً. ثم إنه في صفاءٍ ذهنيٍّ يقتبس آية مناسبة من سفر المزامير، مما يدل على أن قواه الذهنية أيضاً كانت حاضرة. ثم إنه لا ينحني مُرغَماً أمام الموت، ملك الأهوال، بل يقول لأبيه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». وبعد أن فاه بهذه العبارة أسند* رأسه وأسلم الروح.

---

* يعلِّق "فاين" على عبارة «نكس رأسه» الواردة في يوحنا ١٩: ٣٠ بالقول إن الكلمة "نكس" تعني حرفياً "أسند". لقد وضع رأسه في وضع الراحة، ووجهه نحو السماء، بعد أن أنجز المهمة التي كلفه إياها الله. ثم أسلم الروح.

قال أحد الأفاضل: "مَن فينا يذهب ولو إلى النوم، وينام بإرادته كما فعل هو - تبارك اسمه - عندما مات؟ مَن فينا يخلع ملابسه بسهولة ويسر بمطلق رغبته كما فعل يسوع عندما خلع جسده؟ من فينا يخرج من باب غرفته عندما يريد كما فعل سيدنا عندما خرج من هذا العالم وقت أن أراد؟"

> مَن فينا يذهب ولو إلى النوم وينام كما فعل المسيح عندما مات؟ مَن فينا يخلع ملابسه بسهولة ويسر بمطلق رغبته كما فعل هو عندما خلع جسده؟ مَن فينا يخرج من باب غرفته كما فعل سيدنا عندما خرج من هذا العالم وقت أن أراد؟

ثم ما أعظم هذا التعبير الذي تكرر في الأناجيل الأربعة جميعاً «أسلم الروح»*. فروحه لم يأخذها أحد منه عنوة، بل كما قال له المجد «أضعها أنا من ذاتي» (يو ١٠:١٨). نعم لم تؤخذ روحه منه قهراً، بل بكامل إرادته واختياره قَبِلَ الموت. وبلغة إشعياء ٥٣: ١٢ «سكب للموت نفسه».

ثالثاً: أن المسيح مات مسلِّماً الروح في يدي الآب

نعرف من سرد الأناجيل لأحداث الصلب أن أحداً من التلاميذ لم يكن إلى جوار المسيح عند الصليب، إذ تركه الجميع وهربوا (مر ١٤: ٥٠)، بل إن النساء

---

* بمقارنة الكلمة اليونانية كما وردت في الأناجيل الأربعة نجد أحد الأدلة على الوحي اللفظي لكلمة الله. ففي إنجيل متى الذي يتكلم عن المسيح بصفته الملك ترد كلمة تعني حرفياً أنه "صرف الروح". وفي كل من إنجيلي مرقس ولوقا، اللذين يكلماننا عن المسيح باعتباره الخادم وابن الإنسان، ترد كلمة يونانية أخرى بمعنى "أخرج الروح". أما في يوحنا، إنجيل ابن الله، فالكلمة المستخدمة هناك تعني حرفيا "أسلم الروح". إنه صاحب السلطان على روحه (يو ١٠:١٨)، وهو في هذا يقف في مباينة مع كل البشر (جا٨: ٨).

الوفيات أيضاً لم يكنَّ في لحظة موته على مقربة منه، بل كنَّ «ينظرن من بعيد» (مت٢٧: ٥٥؛ مر١٥: ٤٠؛ لو٢٣: ٤٩). لكن الآب كان قريباً منه في تلك اللحظات، فقال له: « يا أبتاه، في يديك أستودع روحي».

إنه لم يسلِّمها في أيدي الملائكة بل في يدي أبيه. ومع أنه – تبارك اسمه – كان موضوع خدمة الملائكة في مسيرته هنا فوق الأرض (مز ٩١: ١١،١٢)، وهو كالإنسان الكامل تمتع بخدمة أيديهم في حياته، لكنه الآن عند موته لا يسلِّم روحه في أيديهم بل في يدي الآب.

يظن قوم أن المسيح ذهب إلى الجحيم من قِبَل الصليب. لكن تلك العبارة السابعة من فوق الصليب، آخر عباراته قبيل موته تمنعنا من الوقوع في هذا الخطأ. لقد قال لأبيه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي»، وقبلها كان قد قال للص التائب «الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس». هذان النطقان لسيدنا، وهو فوق الصليب، يُعرِّفاننا تماماً أين انطلقت روحه عندما دخل جسده – له كل المجد – إلى القبر. وبدخوله إلى القبر لم ينزل فقط إلى الأرض، (فهو كان قد نزل من السماء إلى الأرض بالتجسد) لكنه بالموت نزل إلى أقسام الأرض السفلى (أف٤: ٩). لكنه في الوقت نفسه استودع روحه بين يدي الآب، وانطلق إلى الفردوس.

آخر الأقوالِ ما أروعَها	في يديكَ روحي أستودِعُها
في يدي الآبِ قد أودعتَها	باختيارٍ أنتَ لمْ تمنعَها
نفسَكَ للموتِ قد أسلمتَها	لكَ سلطانٌ تضعها أو تدعها
لم تُسلمُها إليهِ عُنوةً	قلتَ قبلاً "أنا من ذاتي أضعها"
قصة الصلبِ سَمَتْ جداً كما	كلماتُ الصلبِ ما أروعها

* * * *

والآن بعد أن ركزنا الحديث على الموت الذي ماته المسيح، أريـــد الآن أن ألقي نظرة على هذه العبارة ذاتها.

هذه العبارة اقتبسها الرب – له المجد – من المزمور الحـــادي والثلاثيـــن. ومن هذا نتعلم المكان البارز والهام للكتاب المقدس في حياة المسيح. إنـــه هـــو القائل «شريعتك في وسط أحشائي» (مز ٤٠:٨). ولهذا فإنه لمَّـــا كـــان علـــى الصليب وجَّه عبارات ثلاثاً للآب كانت كلها مُستوحَاة مـــن الكتـــاب المقـــدس: العبارة الأولى «يا أبتاه، اغفر لهم» كانت تتميماً للنبوة الواردة في آخر آية فـــي إشعياء ٥٣ «شفع في المذنبين»، والعبـــارة الرابعـــة «إلـــهي، إلـــهي، لمـــاذا تركتني؟» كانت اقتباساً حرفياً من أول آية في المزمور ٢٢، والآن هذه العبـــارة السابعة والأخيرة – موضوع تأملنا – كانت أيضاً اقتباساً من مزمور ٣١:٥.

لقد كان يلذ للمسيح الاقتباس من الكتاب. ومع أنه لم تكن تعوزه الكلمـــات التي بوسعه أن يصوغها صياغة إلهية، فكما شهد له أحباؤه «أنت أبرع جمـــالاً من بني البشر، انسكبت النعمة على شفتيك» (مـــز ٤٥:٢)، وكمـــا شـــهد عنـــه أعداؤه «لم يتكلم قطّ إنسان هكذا مثل هذا الإنسان» (يو٧:٤٦). لكنه – تبـــارك اسمه – فضَّل ألا يصوغ عبارة جديدة، بل أن يقتبس من الوحي ذاته. لقد كـــان هو نفسه الكلمة، الكلمة الذي كان في البدء عند الله، والكلمة الذي صار جســـداً وحلَّ بيننا (يو ١:١،٢،١٤). لكنه أيضاً كان يعيش بالكلمـــة المكتوبـــة، وكـــان شعاره «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمـــة تخـــرج مـــن فـــم الله» (مت٤:٤)، وأيضاً «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت، وشـــريعتك فـــي وســـط أحشائي» (مز ٤٠:٨). لقد بدأ خدمته في البرية باقتباسات ثلاث مـــن كلمـــة الله وجهها إلى الشيطان، وختم حياته من فوق الصليب بصلوات ثـــلاث مســـتوحاة من هذه الكلمة عينها، وجهها إلى الله!

لكن من المهم أن نلاحظ كيف اقتبس المسيح من المزمور. فلقد أضاف شيئاً إلى الآية في أولها، كما أغفل ذكر عبارة وردت في آخرها. فهي في المزمور «في يدك أستودع روحي، فديتني يا رب إله الحق». فأضاف المسيح كلمة «يا أبتاه» في أولها. وهي كلمة لم يكن ممكناً لقديسي العهد القديم أن يقولوها. أما نحن فنقولها لأن سيدنا علمنا أن نبدأ صلاتنا بالقول «أبانا»، وأما المسيح فيقولها ولكن بمعنى أعمق وأعظم*. فنحن أخذنا روح التبني الذي به نصرخ «يا أبا، الآب» (رو٨: ١٥)، وأما المسيح فهو الابن الوحيد الأزلي. وحتى عندما صار إنساناً فإنه بِكرٌ بين إخوة كثيرين. لذلك قال للمجدلية «اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم» (يو٢٠: ١٧)، ولم يقل إلى أبينا.

نحن لا نستودع أشياءنا الثمينة لدى شخص مجهول، ولا لشخص ميت لا يقدر أن يحافظ عليها. فإن كنا لا نفعل ذلك بأمور الدنيا الفانية فبالأولى كثيراً بالنسبة لأرواحنا الخالدة. فلنتعلم من المسيح هذا الدرس الغالي.

وأما العبارة الأخيرة في أقوال كاتب المزمور فلم يكن مناسباً أن يقولها المسيح، حتى وإن قالها داود: فهو لم يُفْدَ، بل بالحري قدّم نفسه باعتباره الفادي الوحيد، لذلك لم يقل المسيح «فديتني يا رب»، وأما نحن في العهد الجديد فكم يلذ لنا، نحن المفديين، أن نقولها. بل هي في أفواهنا أشهى وأحلى مما تذوقه المرنم في العهد القديم وهو ينطق بها أوّل مرة.

* * * *

* لقد راعت الترجمة التفسيرية هذا الأمر عندما ترجمت العبارات الثلاث المتشابهة بحسب ترجمتنا المعتادة (فانديك). ففي مرقس ١٤: ٣٦ ترد عبارة «يا أبا، الآب» التي نطق بها المسيح هكذا: "يا أبا، أبي"، وأما في رومية ٨: ١٥، وفي غلاطية ٤: ٦ حيث ترد هذه العبارة عنا، فقد وردت في هذه الترجمة "يا أبا، أبانا".

«يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». والإنسان عــادة عنــد الاحتضــار يستودع أغلى ما عنده لأعز من لديه. وها هو المسيح يستودع روحه الإنســانية لأبيه. إن روح الإنسان هي بكل يقين أغلى وأهم ما يمتلــك الإنســان. إنــها أعظم أجزاء كيان الإنسان الثلاثي: الروح والنفــس والجسـد (١تـس٥:٢٣). والجسد عند الموت يرجع إلى التراب كما كان، وأما الــروح (ومعــها النفـس) فترجع إلى الله الذي أعطاها.

ونحن لا نستودع أشياءنا الثمينة البتَّة لدى شخص مجــهول لا نعرفــه، ولا لشخص ميت لا يقدر أن يحافظ عليها. فإن كنا لا نفعــل ذلــك بــأمور الدنيــا الفانية فبالأولى كثيراً بالنسبة لأرواحنا الخالدة. لذلك فإننا هنا نتعلم من المســيح درساً غالياً وعظيماً عندما قال لأبيه قبل أن يموت «يا أبتاه، في يديك أســتودع روحي». ولقد وعى ذلك الأمر شهيد المسيحية الأول استفانوس، وتعلَّــم مــن صليب سيده أثمن الدروس. فكما صلى المسيح لأجل صالبيه قائلاً «يــا أبتــاه، اغفر لهم»، فإنه هو أيضاً قال عن راجميه «يا رب، لا تُقِمْ لهم هذه الخطيــة». وكما قال المسيح لأبيه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي»، هكذا هو أيضاً قــال «أيها الرب يسوع، اقبل روحي».

* * * *

دعني في النهاية أختم تأملاتي في هذه الأقوال الثمينة بهذه النصيحة الغاليــة للقارئ العزيز: ليتك لا تنتظر ساعة الوفاة لكي تنطق بهذه العبارة العظيمة، بــل لتكن هذه صلاتك في كل صباح، بل ليكن هذا شعارك في كل حيــن. قــل لله: "يا أبانا في يديك استودع روحي ونفسي وجسدي. أنا أحتاج إليــك فــي كــل لحظة من لحظات يومي، فتفضل يا سيدي وامسك بدفــة حيــاتي، وكــن أنــت قابض قرعتي، ولتكن في يديك آجالي وأوقاتي".

ونحن إذ نقول للرب «في يديك أستودع روحي» فإننا علـــى التـــو نتذكـــر الكُلفة الكبيرة التي تكلفها، فنقول له «فديتني يا رب إله الحق»، ولأنه فدانا فـــهو يستحق كل كياننا «كي يعيش الأحياء في ما بعد لا لأنفسهم، بـــل للـــذي مـــات لأجلهم وقام» (٢كو٥:١٥)، «لأننا إن عشنا فللرب نعيـــش، وإن متنـــا فللـــرب نموت، فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن» (رو١٤:٨).

دعوني إلى الجلجثة

دَعوني إلى الجلجثـــةْ أقــتربْ لأعرِفَ أحــزانَ ربٍّ صُلِـبْ
وأُصغــي لأسـمعَ أقوالَـــهُ وأدنــو لأنظُــرَهُ عَــنْ كَثَــبْ
فإذ بي يَشُـــقُّ علــيَّ السـمَعْ وقلبــيْ لمنظــرِهِ يضطَـــرِبْ
فصوتُهُ يعلـــو بعمــق الألـمْ ليسألَ صَفْحــاً لأبشــعِ ذَنْـبْ
يــذوبُ لحــالِ امِــه رِقّـــةً فحَالُها عــنْ بَالِــهِ لــم يَغِـبْ
ويمنحُ مجـــداً للِّــصِ يتــوبْ ويَعرِضُ عفواً لِمَنْ لــم يَتُــبْ
أيا ربِّـــي صرختُــك المُــرّةُ لها قلبي ذابَ ودمعي انسَــكَبْ
فها اللهُ فـــي غضــبٍ فـاتَكَ وعن وجهكَ وجْهَهُ قدْ حَجَــبْ
عَطِشتَ ولكنْ صرختَ لكـــي تُتَمِمَ كُـــلَّ الــذي قَــد كُتِــبْ
وإذْ تَمَّ أعلنـــتَ «قَـدْ أُكمِــلَ» فكلُّ حســابي عليــكَ حُسِـبْ
وهكـــذا روحُــك أودعتَـــــها أباكَ بكـــلِّ خضــوعٍ وحُــبْ

* * *

أيا ربُّ طيبـــي قليــلٌ عليــكَ كذا نـــارديني إذا مـــا سُــكِبْ
ولا يكفـــي مـــالٌ ولا فضـــةٌ ولو كنتُ أملكُ أغلى الذهـــبْ
فيا ليتَ دمعي علـــى قدميــكَ يسيلُ فيكشفَ عرفــــانَ قلــبْ
ويغسِلُهُما مِنْ جـــروحٍ دَمَــتْ بفعلِ الحديدِ الــذي قــد ثَقَــبْ
وليتني أقضـــي حيــاتي هُنــا أُقبِّلُــهُما بامتنـــــانٍ وحُــــبْ

فيبي فارس

بقلم المؤلف

- تأملات في الموعظة على الجبل
- وحي الكتاب المقدس — طبعة ثالثة
- الشيطان
- معجزات المسيح
- مواسم الرب
- مختصر شرح سفر الرؤيا — طبعة ثالثة
- المعمودية المسيحية
- ثلاث حقائق أساسية في الإيمان المسيحي — طبعة خامسة
- المسيح الطبيب العظيم
- المسيح المنقذ العظيم
- المسيح الرفيق العظيم
- شهود يهوه
- المسيح المتألم
- أجراس النعمة
- رحلة الكنيسة
- الصلاة النموذجية
- عودة الهارب
- في مجمع الناصرة

تحت الطبع

المزامير المسياوية

الاختيار

كلمات الرب من فوق الصليب موضوع شيق، يجد فيه كل دارس للكلمة المكتوبة، وكل محب للكلمة المتجسد، مادة دسمة وشهية.

فعباراته السبع

هي بمثابة طاقات نتطلع من خلالها إلى ما كان يدور في ذهن مسيح الله خلال ساعات الصليب. ومع أنها كانت كلمات مقتضبة فهي محمّلة بالمعاني، زاخرة بالدلالات.

سبع عبارات. والرقم «سبعة» في كل الكتاب المقدس من أوله إلى آخره، هو رقم الكمال. والآن إذ نتأمل في عبارات المسيح السبع من فوق الصليب فإننا نتأمل في الكمال بعينه.

إنها عبارات تتلألأ بأروع مما تتلألأ به المنائر السبع الذهبية، وتشع من الضياء أعظم مما تشع به الكواكب السبعة في سفر الرؤيا. ولكَم اهتدى بهديها الملايين! ولكم شهدت لسموّ قائلها، وسموّ عمله في آنٍ معاً!

